بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

تزايد الاهتمام في الآونة الأخيرة بالأدب الأندلسي ، وكثرت الدراسات التي تجلو وجه هذا الأدب ، وتبرز ملامحه العامة . ولكن معظم هذه الدراسات إنما اتجه إلى استشفاف المناحي التاريخية للمظاهر الاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية من هذا الأدب معرضاً عن تعمّق الجانب الفني والفكري الذي حظي بعناية أوفر في دراسات الأدب المشرقي ، فاقتصرت الدراسات على أحكام عامة على الشعر الأندلسي تتمثل في رميه بالفقر العاطفي والفكري ، وبالضعف الفني مقارنة بنظيره المشرقي ، وأنه محاكاة باهتة للشعر المشرقي تكرر صوره ومعانيه دونما ملامح أصالة أو تفرُّد .

ومن اللافت أنه لم تحظَ دراسة المذاهب الفنية في الشعر الأندلسي باهتمام يليق بها ، وبحوث مستقلة إلا ماجاء منها مقتضبًا سريعًا في تضاعيف الأبحاث ، مع أهمية هذا الجانب الذي يفصح عن حقيقة التفاعل الثقافي والأدبي بين الأندلس والمشرق ، ويجلو صدى التيارات الشعرية المشرقية في الشعر الأندلسي ، وحقيقة الإبداع الأندلسي والتلوينات الخاصة التي أضفاها الأندلسيون على هذه المذاهب والتيارات . ومن شأن هذه الدراسة أن تفسح السبيل لدراسة الشعر الأندلسي دراسة فنية نقدية بعيداً عن الأحكام السابقة والآراء المألوفة . وذلك باحتكامها إلى النص الشعري بوصفه الحكم الفاصل في قضايا الدراسة والبحث . ولما كان الشعر الأندلسي جزءًا من الشعر العربي ورديفًا له في ذلك الصقع الأندلسي ، ولما كانت الصلات الأدبية بين المشرق

والأندلس قوية ـ على العموم ـ كان تفاعل الشعر الأندلسي بالمذاهب الشعرية في المشرق وتأثره بها جليّا .

ولقد دفعنا هذا كله إلى دراسة حال الشعر الأندلسي بين المذهبين الشعريين الأساسيين اللذين تنازعا النتاج الشعري الأندلسي لتبيان البواعث التي وجهت ميل الشعر الأندلسي إلى مذهب بعينه دون آخر في حقبة زمنية بعينها دون غيرها ، ولاستجلاء السمات الخاصة والمنازع الفريدة التي وسمت مسيرة الشعر الأندلسي في ترجحه بين المذاهب الشعرية ، والمنهج الأندلسي الخاص في التلقي والتفاعل مع مذاهب الشعر المشرقي . فضلاً عن استخلاص بعض الأحكام ، واستشفاف بعض الرؤى في جوانب فكرية ، وفنية ، ونفسية ، وحضارية من خلال تحليل النصوص الشعرية .

وربما كان من أبرز المصاعب التي واجهتها هذه الدراسة طول الفترة الزمنية التي تحتضنها ؛ إذ تمتد إلى التاريخ الشعري الأندلسي كله . وفي هذا مافيه من تعبئة للجهد في الاستقصاء ، وإثارة لصعوبات جمة تتمثل في العثور على المصادر ، وفي الحاجة إلى زمن أطول لإنجاز الدراسة . ولكن هذا الطول الزمني لموضوع الدراسة كان في الوقت نفسه من آيات الخير ؛ لأنه أعان على جلاء الظاهرة المدروسة ، وأبرزها في تطورها الطبيعي . مما فسح المجال لإنجاز دراسة تنزع نحو التكامل في الرؤية ، والمعالجة ، والتحليل ، واستخلاص النتائج . وإن كنا لاننكر الجنوح نحو التعميم أو الاقتضاب في بعض القضايا . وذلك لصعوبة بسط القول في القضايا الجزئية الكثيرة التي يضمها هذا البحث ويقود التفصيل فيها إلى مضاعفة حجمه .

وكانت ندرة الدراسات التي تناولت موضوع البحث عقبة أخرى واجهت هذه الدراسة . لكنها هي التي قادتها ـ من جهة أخرى ـ وفي كثير من الأحيان إلى الاستقلال في النظرة ، والتحرر من سلطة الأحكام المعهودة . ومع هذا فهذه الدراسة تدين بفضل عظيم ، وترتكز على أسس راسخة أرستها بعض الدراسات

التي تتسم بالأصالة في الرأي ، والصفاء في الرؤية ، والغنى في الذخيرة الثقافية ، والحصافة في المعالجة والنقد . وتأتي في مقدمتها دراسة الدكتور إحسان عباس للأدب الأندلسي في كتابيه «عصر سيادة قرطبة» و «عصر الطوائف والمرابطين» ، ودراسته للنقد الأدبي في الأندلس في كتابه «تاريخ النقد الأدبي عند العرب» ، ومن هذه الدراسات أيضاً كتاب الدكتور أحمد هيكل «الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة» ، و «الأندلس» للدكتور شوقي ضيف ، و «تاريخ النقد الأدبي في الأندلس» للدكتور محمد رضوان الداية وغيرها...

أما المصادر الأساسية لهذا البحث التي استقى منها النصوص الشعرية موضوع الدراسة ، والنصوص النقدية القديمة . فضلاً عن الجانب التاريخي فكان على رأسها «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام الشنتريني ، و«المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد ، و «الحلة السيراء» لابن الأبار ، و«جذوة المقتبس» للحميدي ، و «نفح الطيب» و «أزهار الرياض» للمقري ، وبعض كتب التراجم كَـ «الصلة» لابن بشكوال ، و «التكملة» لابن الأبار وغيرها كثير من مصادر الشعر الأندلسي فضلاً عن بعض المجموعات الشعرية ككتاب «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لابن الكتاني الطبيب ، و«المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية ، ودواوين الشعراء الأندلسيين مع دواوين بعض الشعراء في المشرق لضرورة المقارنة وجلاء التأثر والتأثير اللذين اقتضتهما طبيعة الدراسة .

ولم تعتمد هذه الدراسة منهجاً بعينه ، وإن قدّمت المنهج التاريخي النقدي لملاءمته طبيعة البحث الذي يقوم على تفحص الظاهرة ، وتحليلها ، والحكم عليها في سياق تطورها الزمني ، وتفاعلها مع مقتضيات العصر ومستجداته . ولكن هذه الدراسة استعانت أيضا بمناهج أخرى كلٌّ في المقام الذي يقتضيه ، وأسهمت هذه المناهج في توسيع آفاقها ورفدها بمناحٍ أكثر غنى وثراء .

قُسِمتْ هذه الدراسة إلى بابين كبيرين يتضمن كل منهما ثلاثة فصول مُهِّد لها بمدخل يتناول الذوق الأدبي الأندلسي بين مذهبي العرب والمحدثين كان بمثابة الركيزة الأساسية في هذا البحث ضمّ على نحو مكثف الأسس المهمة التي يعرض لها البحث بالدرس والتحليل ، ففصّل في ظروف نشوء المذاهب الشعرية في الأندلس والبواعث التي أثرت في تنمية الذوق الأدبي على كل من هذه المذاهب ، وحال الشعر الأندلسي بين هذه المذاهب ، وميله إلى كل منها بحسب الطور التاريخي والحضاري الذي يحتضنه .

وتناول الباب الأول الاتجاهات الفكرية بين المذاهب الأدبية ، فبحث في فصله الأول : الموضوعات الشعرية أبرزَ الموضوعات التي شاعت لدى ممثلي هذه المذاهب ، وكشف عن تفرد الشعر الأندلسي بابتداع موضوعات جديدة أساسية ، أو جزئية فرضها الواقع الأندلسي المتميز منحت الشعر الأندلسي سمات فريدة .

وظهر في فصل المعاني الشعرية ميلُ المذهب القديم إلى اعتدال المعنى ووضوحه ، وعناية التيار المحدث بتوليد المعنى ، والشغف بغرابته وندرته حتى غدا طلب المعنى هدفًا لدى شعرائه . وهو ماأفضى بشعرهم في كثير من الأحيان إلى التكلف والإحالة في المبالغة ، أو إلى الغموض والتعقيد في أحيان أخرى .

وتناول الفصلُ الثالث الآثارُ الثقافية بروزَ آثار النهوض الفكري الذي شهدته الأندلس ، وأفصحت هذه الآثار عن التيار الشعري الذي ينتهجه شاعرها .

أما البابِ الثاني : الاتجاهات الفنية ، فانقسم إلى ثلاثة فصول . تناول الأولُ منها الصورةَ الفنية وأبان عن تفاوتها مابين العفوية في مذهب العرب ، والسعي إليها في مذهب المحدثين ، وما أدى إليه من حشد الصورة في القصيدة الأندلسية ، والإحالة والإغراق فيها ، وموقف الناقد الأندلسي المحافظ من هذا الإغراق .

وأبان الفصل الثاني عن البديع بين المذهبين ، إذ ورد عفويًّا في مذهب العرب . في حين أسرف المحدثون فيه وأولعوا بفنونه ، وبرزت الدعوة إلى القصد في استخدام ألوان البديع مظهراً من مظاهر التوفيق بين طريقة العرب ومذهب المحدثين .

أما لغة الشعر الأندلسي موضوع الفصل الثالث فتراوحت بين سمات المذهب القديم كالجزالة ، والقوة ، والبداوة ، وبروز الغريب لدى شعراء المذهب القديم المحدث ، والميل العام إلى السهولة والوضوح ، والعذوبة والرقة في شعر المحدثين . وامتازت لغة الشعر الأندلسي بمنازع فريدة فرضها الواقع اللغوي الأندلسي .

وبعد ، فهذه الدراسة لاتخرج عن كونها محاولة لدراسة الشعر الأندلسي دراسة فنية تبغي إماطة اللثام عن جوانب مهمة من هذا الشعر لم تنلْ حظها من النظر والدرس ، وجلاء مناحي التميز والأصالة فيها . وعساها تكون خطوة مفيدة في طريق دراسة هذا الشعر دراسة فنية شاملة .

فإن بلغتُ المأمول من هذا العمل ، أو بعضَه فبتوفيق الله عزّ وجلّ ، وإنْ تعثّرْتُ في مسعاي فحسبي أنني حاولت جاهدة إصابة مرماي .

وأسأل العزيز القدير أن يجعل هذا الجهد خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يكون لبنة تُضاف إلى جهود مَن سبقني في هذا المضمار ، فينتفع به القرّاء ، ولا سيما المعنيّون منهم بالأدب الأندلسي ونقده ، وأن يوفقنا ـ تعالى ـ لمرضاته . إنه سميع مجيب .

القاهرة في : ٢٠ من صفر ١٤٣٨هـ
الموافق : ٢٠ من نوفمبر ٢٠١٦ م

دكتورة

جمانة رجب باشا

obeikandl.com

مدخل : الذوق الأندلسي بين المذاهب الأدبية

١- الذوق الأدبي الأندلسي :

تفرع الشعر الأندلسي من دوحة الشعر العربي ، تغذّى من نسغه ، وأسهم في تمكينه وإغنائه ، ولقد أتاحت له الصلات الأدبية الناشطة بين المشرق والأندلس أن يتلقى ماكان يمور في بيئة المشرق الأدبية من تيارات ومذاهب ، وأن يكون له معها شأن خاص تأثراً وتمثلاً ، وتفرُّداً وإبداعاً .

وتتمثل خصوصية هذا الشأن تمثلاً جليًّا في الذوق الأدبي الأندلسي ؛ إذ تفردت الأندلس بذوق أدبي امتاز بملامح خاصة في بواعث صياغته ، وفي مظاهره العامة ، وفي آثاره البالغة في توجيه النتاج الشعري الأندلسي . وأسهمت عوامل عديدة في تنمية هذا الذوق الأدبي وجلائه وتوجيهه نحو هذا التيار الشعري أو ذاك ، وترجح هذا الذوق بين المذاهب الشعرية المشرقية تبعًا للتفاعل الأدبي بين الأندلس والمشرق ، واستجابة للواقع الأندلسي الخاص ، وما لبث أن أفضى إلى تحقيق جوانب إبداعية منحت الشعر الأندلسي تفردًا وخصوصية .

٢- الذوق الأندلسي وطريقة العرب :

وصل الشعر المشرقي إلى الأندلس ، فتلقفه الأندلسيون ونهجوا على غراره ، وشرعوا يميزون على نحوٍ ما خصائص هذا الشعر وسماته العامة ، فتبيّنوا أن هذا الشعر ينطوي على اتجاهين كبيرين يتسم كل منهما بمظاهر بارزة وملامح جلية : طريقة العرب ، ومذهب المحدثين ، ورأوا أن طريقة العرب ((أكثر جرياناً على الطبيعة وأحفل بالجزالة العفوية وبالغريب ، وأن شعر المحدثين

يعتمد كثيراً على الاستعارات والتشبيهات ويشوبه أحياناً تكلف لايخفى في طبيعة الصياغة))[1] .

وجنح الذوق الأندلسي إلى طريقة العرب في مراحل بعينها من تاريخه ، واتخذها منهجًا شعريًّا أثيراً بفضل بواعث عديدة أبرزها :

أ- الحكام الأندلسيون :

أسهم العديد من الحكام الأندلسيين من أمراء وخلفاء في توجيه الذوق الأندلسي إلى طريقة العرب ؛ إذ كان الحكام الأوائل عرباً مشارقة ذوي ثقافة أدبية بدوية وعربية خالصة ، فوجّهوا الشعر إلى النهل من ينابيع الثقافة العربية الأصيلة التي يشعرون بانتمائهم العميق إليها ، وتمتع كثير من هؤلاء الحكام بمواهب أدبية عالية بدءًا من الأمير عبد الرحمن الداخل (-١٧٢هـ) وانتهاءً بحكام الأندلس المتأخرين ، فكانوا يقرضون شعراً تلوح عليه معالم البداوة والمحافظة والأصالة فالشعر المنسوب إلى عبد الرحمن الداخل صورة للشعر العربي القديم بمعانيه التقليدية كالفخر ، والنظرات الحكمية ، والشوق والحنين ، واطراح اللهو وإيثار الجدّ . كقوله في إحدى غزواته حين عرض عليه أحدهم صيد غرانيق وقعت إلى جانب معسكره ، فأعرض عن داعي اللهو ذاك مؤثراً غاية الحزم والمجد . يقول :

دعْني وصيد وقّعِ الغرانقِ ... فإنّ همّي في اصطيادِ المارقِ
في نفقٍ إنْ كان أو في حالق ... إذا التظَتْ لوافحُ الضوائقِ
كان لفاعي ظلَّ بندٍ خافق ... غنيتُ عن روضٍ وقصرٍ شاهقِ [2]

---

(١) عباس . دكتور إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي . عصر سيادة قرطبة ط ٧ ، ١٩٨٥م ، ص ٤٨ بيروت ـ لبنان .

(٢) ابن الأبار ـ الحلة السيراء . حققه وعلق حواشيه دكتور حسين مؤنس ١٩٦٣م ، ٤١/١ الشركة العربية للطباعة والنشر . القاهرة . وانظر بعض أشعاره في المقري . ـ نفح الطيب . تحقيق : دكتور إحسان عباس ـ ١٩٦٨م ، دار صادر بيروت ٤٤،٤٣،٤٢/٣.

ومن ذلك أبيات للأمير الحكم بن هشام المعروف بالربضي (-٢٠٦هـ) قالها معتذراً لنفسه بالدفاع عن ملكه وحماية سلطانه في وقعة «الربض» [١] مقدّماً صورة جاهلية وأموية للفارس الذي يزهو ببأسه وشدة بطشه وثبات جنانه ، وتتبدى طريقة العرب في خشونة هذا الشعر وجزالته وصوره الحربية المعهودة . يقول :

رأبْتُ صدوعَ الأرضِ بالسيفِ راقعاً وقدمًا لأمتُ الشعبَ مُذْ كنتُ يافعا
فسائلْ ثغوري هل بها اليومَ ثغرةٌ أبادرُها مستنضيَ السيفِ دارعَا
وشافهْ على الأرضِ الفضاءِ جماجما كأقحافِ شريانِ الهبيدِ لوامعَا
تنبّئْكَ أنّي لم أكنْ في قراعِهم بِوَانٍ وقدماً كنتُ بالسيفِ قارعا [٢]

وجنح الحاكم الأندلسي إلى توجيه شاعره نحو مشارف الأصالة . بحضّه على معارضة الشعر المشرقي المحافظ . فهاهو ذا المنصور العامري يعرض على صاعد اللغوي معارضة قصيدة أبي نواس الرائية ذات الاتجاه القديم رافضاً تهيُّب شاعره وتحرُّجه من معارضة الشاعر المشرقي دافعاً إياه إلى ذلك دفعاً حتى لم يجد صاعد بدًّا من الاستجابة إليه [٣] . وهذا المعتصم بن صمادح يفرط في استحسان شعر للنابغة ، فيأمر ابن الحداد بمعارضته ، فيستجيب هذا لأمر الحاكم على الفور ، فقد «غُنّي المعتصم في أحد مجالسه بقول النابغة :

ولمّا نزلْنَا بجسرِ النتاج ولم نعرفِ الحيَّ إلاّ التماسا

---

(١) وقعة الربض : كان سببها أن الأمير الحكم عُرف بكثير من التحرر والميل إلى اللهو والصيد مما أسخط الفقهاء ، فهيّجوا ربض قرطبة عليه ، وأرادوا خلعه وتولية أخيه المنذر ، فحاربهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وهدم الربض وأجلى من بقي من المتمردين وطردهم من الأندلس . انظر نفح الطيب ٦٣٩/٢ .

(٢) الحلة السيراء ٤٧/١، ٤٨ .

(٣) انظر : الحادثة في ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق : دكتور إحسان عباس . ١٩٧٥م ، ق٤ م١ ص٢٢ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس .

أضـــاءتْ لنـــا النـــارُ وجهـــاً أغـــرَّ ... وملتبســـــاً بـــــالفؤادِ التباســـــا

فاستطابه واستحسنه ، وجعله أبدع ماللنابغة وأحسنه ، وأمر ابن الحداد بمعارضته فقال على البديهة :

إذا ماالتمســـتَ الغـــنى بـــابنِ معـــنٍ ... ظفـــرتَ وأحمـــدتَ منـــه التماســـا

ومن يرجُ شـــمسَ العلا مـــن تجيـــبٍ ... فليس يُرى مَنْ رجاه شـــــماسَا»[1]

ولم يقتصر أثر الحكام في صياغة الذوق الشعري على طريقة العرب على قرض الشعر ذي الملامح المحافظة وحضّ الشعراء على نظمه ، وإنما تعداه إلى النقد الذي يجعل أسس طريقة العرب معايير نقدية يقيسون بها شعر الشاعر . فمن المعروف أن الطبع والبديهة تعبير عن الموهبة الشعرية والفطرة القوية . وهذا مايميز أشعار القدماء ـ على العموم ـ ، ومن ثَمَّ جهد المنصور العامري في العناية بقضية البديهة والطبع في مجالسه الأدبية ، فكان يقترح على الشعراء وصف أشياء على البديهة ، أو يطلب إليهم معارضة أشعار بعينها ابتلاءً لطباعهم ((واتخذت هذه التجارب الشعرية المفاجئة صنوفاً وأشكالاً متعددة . فمن هذه الأشكال ماكان وليد حوار جلسة للكشف عن سليقة شاعر وطبعه . وغالباً ماكانت التجربة تستمد موضوعها من موجودات المجلس من أزاهير وفواكه وأثاث))[2] . وللمنصور مع صاعد اللغوي أخبار كثيرة في امتحان بديهته وارتجاله أحسنَ فيها صاعد وظهر على حساده وخصومه[3] .

---

(١) ديوان ابن الحداد . تحقيق : دكتور يوسف علي طويل ـ ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ٢٢٥ دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان . وابن خاقان . الفتح . بلا تاريخ ـ قلائد العقيان ـ بلا مكان طباعة ص٤٩ .

(٢) عبد الرحيم . دكتور مصطفى عليان ـ تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري ـ ط . الثانية ، ١٩٨٦م ص ٧٦ . مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

(٣) انظر هذه الأخبار في الذخيرة ٤ /١ : ١٧ حتى ٢١ .

ومُنح شعراء الطبع والبديهة تقديراً خاصًّا في دواوين ابن أبي عامر الخاصة بالشعراء ؛ إذ أجرى على هذه الفئة أرزاق ديوان الندماء ، وأدرجت أسماؤهم فيه ، وكانوا يظفرون بمجالسة المنصور مباشرة[١] .

وقدّم العديد من العلماء الأندلسيين مؤلفاتهم إلى الحكام ذوي الثقافة الأدبية الأصيلة . فهذا أبو علي القالي يهدي كتابه (الأمالي) إلى الخليفة الحكم المستنصر ، ويشيد بفضله في المقدمة[٢] . والأمالي كما هو معروف مختارات أدبية تضم أشعاراً جاهلية وأموية فضلاً عن الأخبار والنوادر والأمثال والحكم . وفي سياق العناية بالشعر العربي المحافظ قدَّم بعض العلماء والشراح الأندلسيون شروحهم لهذا الشعر إلى أولئك الحكام . فقد رفع الأعلم الشنتمري شرحه للشعراء الستة الجاهليين امرئ القيس ، وزهير ، والنابغة ، وعلقمة ، وطرفة ، وعنترة إلى المعتضد بن عباد فضلاً عن شرحه حماسة أبي تمام التي تتضمن أشعار الجاهليين والأمويين ذات الروح المحافظة[٣] .

وجهد حكام العصور المتأخرة ولا سيما حكام عصر الطوائف في توجيه شعرائهم نحو أبواب البداوة والجزالة تمسكاً بمظاهر الأصالة إزاء النكبات السياسية الطاحنة ـ كما سنرى ـ .

---

(١) انظر : دكتور مصطفى عليان ، تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص ٧٩ .

(٢) انظر : الأمالي ـ أبو علي القالي . ١٩٨٠م ، ٢/١، ٣ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت .

(٣) انظر : ابن عذاري المراكشي ـ البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب . ١٩٣٠م ، ٢٨٤/٣ باريس . وانظر : الأعلم الشنتمري ـ مقدمة حماسة أبي تمام تحقيق وتعليق دكتور علي المفضّل حمودان . ١٩٩٢م ط ١ ص٦١ . مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ـ دبي . وذكر في مقدمة شرح الحماسة أن الأعلم قدّمها إلى المعتمد في بعض النسخ وذكر اسم الحاجب إسماعيل في نسخ أخرى . انظر : مقدمة شرح الحماسة ص٣٨،٣٧. وانظر : فهرست ابن خير . وقف على نسخها وطبعها الشيخ فرنشسكه قداره زيدين وتلميذه خليان رباره طرغوه ـ ط١ ص٣٨٨ ، ١٩٦٣م.

ب ـ المؤدبون :

أثر المؤدبون من اللغويين والشراح في ميل الذوق الأندلسي إلى طريقة العرب ؛ وكان هؤلاء المؤدبون يعلّمون الناشئة مبادئ العربية وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي ، واتسم بعضهم بثقافة واسعة وإقبال شديد على العلم ، فرحل إلى المشرق ولقي كبار النحاة وأئمة اللغة . من هؤلاء الغازي بن قيس (- ٢٩٦هـ) الذي لقي الرياشي وأبا حاتم وأدخل إلى الأندلس علماً كثيراً من الشعر واللغة والغريب والأخبار ، وعنه روى المشايخ الأشعار المشروحات كلها[١] . ومنهم أبو موسى الهواري وهو ((أول من جمع الفقه في الدين وعلم العرب بالأندلس))[٢] رحل إلى المشرق ولقي الأصمعي وأبا زيد الأنصاري وغيرهما وداخل الأعراب في محالّها[٣] ، والخشني الذي كان بصيراً بكلام العرب رحل فلقي المازني وأبا حاتم والرياشي[٤] ، وأحمد بن نعيم الذي جمع إلى العلم بالعربية تقدماً في صناعة الشعر وحظًّا من البلاغة[٥] ، وكان أبو الحكم بن برجان ((بحراً في حفظ اللغة لاتكدّره الدلاء))[٦] يحفظ بعض كتب اللغة .

وكان فريق من هؤلاء شعراء يسيرون على طريقة العرب في أشعارهم مثل أبي المطرف عبد الرحمن بن عثمان (- ٣٣٥هـ) الذي كان نحويًّا لغويًّا فصيح اللسان ، شاعراً مجوداً أكثر أشعاره على مذاهب العرب وله أراجيز فصيحة

---

(١) انظر : الزبيدي أبو بكر ـ طبقات النحويين واللغويين . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط ١ ، ١٩٥٤م ، ص ٢٨٩ .

(٢) طبقات الزبيدي ص ٢٧٥ .

(٣) انظر : طبقات الزبيدي ص ٧٥ .

(٤) انظر : طبقات الزبيدي ص ٢٩٠ .

(٥) انظر : طبقات الزبيدي ص ٢٨٧ .

(٦) الرعيني أبو الحسن علي بن محمد بن علي ـ برنامج شيوخ الرعيني . حققه إبراهيم شبّوح . المطبعة الهاشمية بدمشق ، ١٩٦٢م ، ص ٩٨ .

أيضاً[١] ، وعباس بن ناصح الجزيري الذي جمع إلى العلم باللغة والعربية فصاحة في الشعر واللسان وكان مذهبه في شعره مذهب العرب الأول في أشعارهم ، وكان حريصاً على كشف مَن نجم في الشعر بعد ابن هرمة[٢] انسجاماً مع مذهبه في إيثار القديم .

وتلوح بعض خصائص طريقة العرب في شعر هؤلاء لامتيازه بسهولة اللفظ وتدفق الأسلوب كشعر ابن أصبغ الكاتب الذي كان شاعراً مطبوعاً سهل الكلام سبط اللفظ[٣] ، وكان لمنذر بن سعيد البلوطي القاضي (- ٣٥٥هـ) أشعار مطبوعة[٤] ، ومن هذه الخصائص أيضاً التدفق والغزارة وطول النَفَس فضلاً عن الطبع ، فكان أبو جرثومة مطبوع الشعر غزيره[٥] وكذلك ابن وقاص القرشي[٦] أما القلفاط محمد بن يحيى بن زكريا (- ٣٣٠هـ) فكان بارعاً في علم العربية مطبوعاً يطيل في قصائده ويحسن[٧] ، وكان أبو الحكم بن برجان في شعره يجري على طريقة العرب ، ويستضعف الشعر المحدث[٨] . كما اتسم شعر هؤلاء بالمباشرة والبعد عن الصقل والتجويد والإقلال من الصور على العموم[٩] .

ويغلب الميل إلى طريقة العرب لدى هؤلاء المؤدبين الراحلين حتى لدى مَنْ أدخل إلى الأندلس أشعار المذهب المحدث ؛ فثمة رواية تجلو سطوة تقاليد المذهب القديم على أذواق هؤلاء المؤدبين وحرصهم عليها في بناء القصيدة . فهذا عثمان بن المثنى النحوي يؤثر مقدمة القصيدة التقليدية ، ويعدّ

---

(١) انظر : طبقات الزبيدي ٣٣١ .
(٢) انظر : طبقات الزبيدي ص ٢٨٤ .
(٣) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٣٣ .
(٤) انظر : طبقات الزبيدي ص٣١٩، ٣٢٠ .
(٥) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣١٦ .
(٦) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣١٥ .
(٧) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٠١ .
(٨) انظر : الرعيني . برنامج شيوخ الرعيني ص ٩٨ .
(٩) انظر عباس . دكتور إحسان . عصر سيادة قرطبة ص ١٥٥

الشاعر الذي يلتزمها أشعر الناس . يُروى أنه ((جمعه مركب ببحر القلزم مع حبيب بن أوس ـ أبي تمام الطائي ـ فأنشده شعره الذي يقول فيه :

الله أكبرُ جاء أكبرُ مَنْ مشى فتعثرتْ في كنهِهِ الأوهامُ

وكان هذا البيت مبتدأ الشعر ، فقال له ابنُ المثنى : شعرٌ حسن لولا أنه لا ابتداء له ، فوقدت في نفس حبيب ، وابتدأ الشعر بقوله :

دمنٌ ألمَّ بها فقال سلامُ كم حلَّ عُقدةَ صبرهِ الإلمامُ

ثم أنشده في اليوم الثاني الشعر بهذا الابتداء إلى تمامه ، فقال له ابن المثنى : أنت أشعرُ الناس فعظم في نفس حبيب ، ثم لقيه في انصرافه وحبيب قد عظم قدره وجلّ خطره ، فكان يؤثره ويعرف له فضله ، وكان أول من أدخل شعره))[1] .

ولا جرم أن أثر هؤلاء المؤدبين كان عميقاً في توجيه طلبتهم نحو طريقة العرب بطبيعة ثقافتهم وباتجاههم الشعري . فمن الطبيعي أن يُعنى طلابهم بمنحى أساتذتهم الشعري ويُقبلوا على الاتجاه القديم ميلاً ودراسةً ومحاكاة شعرية .

وفي أوساط هؤلاء اللغويين تمّت خطوات نقدية أولية أسهمت في تعزيز التوجه نحو مذهب الأوائل من خلال العناية بالسلامة اللغوية ، وتصحيح الخطأ الوارد في شعر الأندلسيين الذي حظي بدراستهم ومتابعتهم . فقد أُنكِر على عباس بن ناصح في حلقة أحد النحويين أنه خفّف ياء النسب في قوله :

يشهدُ بالإخلاصِ نوتيُّها للهِ فيها وهوَ نصراني

فاحتج عباس على المنكرين بقول عمران بن حطان :

يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ وإن لقيتُ معدّياً فعدناني [2]

---

(١) ابن الأبار ـ التكملة لكتاب الصلة . عني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني . مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٥م ، ١/١٠، ١١ .

(٢) انظر : الرواية في طبقات الزبيدي ٢٧٨، ٢٧٩ .

وكان للشراح الأندلسيين إسهام بالغ في رعاية طريقة العرب بعرضهم الأشعار العربية القديمة وشرحهم لمعانيها ، وتقريبها من أذهان الطلبة . فقد جهد هؤلاء الشراح في شرح الشعر المشرقي فضلاً عن النثر وكتب النحو واللغة والأدب ((وعرفت مجموعة من الشراح الأندلسيين بالضبط في النقل ، والدقة في الجمع ، والتثبت في الرواية ، والعناية في الشرح ، وحفظوا لنا مجموعات شعرية ودواوين مفردة أحياناً . ومن هنا جاءت أهمية الشارح الأندلسي في تاريخ الأدب العربي))[١].

وعني هؤلاء الشراح بالشعر القديم على نحو خاص . وذلك لضرورة تبيين معانيه ولا سيما مافيها من غريب وحشي ، وإبراز جوانبه الجمالية وسماته الفنية ، فتخيّروا مجموعات من دواوين الجاهليين ، وأوسعوها شرحاً ودراسة وتعليقاً لغاية تعليمية إذ ((كان حفظ الأشعار العربية وعلم معانيها ومعرفة مافيها من خبر ولغة وأغراض بلاغية وميزات فنية جزءاً هامًّا يُقرّر على الطلبة في حلقات الدرس ، ويأخذ الدارس به نفسَه من حفظ وفهم ودراية))[٢] ، وأثرت هذه الشروح في ميل الذوق الأدبي إلى طريقة العرب لكثرتها وإقبال الناس على اقتنائها أولاً [٣] ، ولصدور أصحابها عن الثقافة العربية الأصيلة ، ولاحترامهم للمثل الشعرية العربية[٤].

---

(١) الداية . دكتور محمد رضوان ـ تاريخ النقد الأدبي في الأندلس . مؤسسة الرسالة ـ ط٢، ١٩٨١م ، ص ٧١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٧١ . (٣) انظر : المرجع السابق ص ٩١ .

(٤) من نماذج احترام هؤلاء للمثل الشعرية العربية ماورد في شرح الطبيخي الأندلسي لديوان صريع الغواني إذ يتجسد في بعض المواضع الذوق الأدبي الذي يؤثر طريقة القدماء ويلزم تقاليدهم الشعرية . يقول الطبيخي في شرح بيت مسلم :

وتجنّبي الخُفَرَاء إنّ سيوفهم حُدثٌ وإنّ قناتهم لم تَضْرس

« يقول للسحابة أمطري الأنصار (وتجنبي الخفراء إنّ سيوفهم حدث) أي جمع حديث ، (وإنَّ قناتهم لم تضرس). ولو قال (إن قنيهم حدث وإن سيوفهم لم تضرس) لكان أجود لأن الشعراء إنما تصف بالفلول السيوف ، وتصف الرماح بالانقصاف» شرح ديوان صريع الغواني تحقيق ـ سامي الدهان ـ دار المعارف بمصر ص ١٣٦ .

ج ـ الظروف الأندلسية :

أسهمت الظروف الأندلسية السياسية والاجتماعية في مراحل عديدة من تاريخها في توجيه الذوق الأندلسي نحو ميادين الجزالة والقوة والبداوة ، فكانت هذه الأوضاع في المراحل الأندلسية المبكرة دافعاً إلى العناية بشعر الاتجاه المحافظ ؛ إذ عاش الأندلسيون آنذاك في مجتمع غريب تسود فيه العجمة ، فتولد لديهم إحساس بالغربة والوحشة ، ودفعهم هذا الإحساس إلى التوجه إلى المشرق مهد العروبة ومركز الإسلام ومحاكاة أساليبه الثقافية والأدبية ، فعكفوا على العناية بشعر الأصالة وقالوا شعراً على غراره .

وكذلك اقتضت هذه العصور المتقدمة ـ عصر الولاة والإمارة ـ شعراً محافظاً وحماسيًّا . إذ شهدت منازعات وحروباً وفتناً كثيرة بدءاً من فترة الفتح وما أعقبه من توطيد سلطان الفاتحين والقضاء على أعدائهم ، فالصراع على السلطة بين العرب والبربر ، ونشوء العصبيات القبلية التي حملها الفاتحون العرب معهم من المشرق ، ومن ثَمَّ الاضطرابات الداخلية كفتنة الربض ، والفتن بين العرب والمولّدين . وهكذا فرضت البيئة الأندلسية أشعاراً ترتبط بواقع الصراع والحروب كالحماسة والفخر ، ومديح القادة ، ووصف المعارك . ولا غرو أن تتسم هذه الأشعار بالقوة والفخامة وبغلبة الطابع البدوي لأن أصحابها ـ وهم مشارقة أصلاً ـ كانوا مايزالون يحتفظون ببداوتهم .

فمن الشعر الذي قيل في النزاع بين العرب قيسيين ويمنيين ماقاله أبو الخطار حسام بن ضرار (-١٣٠هـ) وكان شاعراً فارساً من أشراف اليمنيين يعاتب الحكام المروانيين على نصرتهم للقيسيين على اليمنيين :

أَفَأَنْتمْ بني مروانَ قيسًا دماءنا وفي اللهِ إنْ لم تنصفوا حكمٌ عدلُ

كأنكمُ لم تشهدوا «مرجَ راهطٍ» ولم تعلموا مَنْ كان ثَمَّ له الفضلُ

فلا تـــأمنوا إنْ دارتِ الحـــربُ دورةً وزلّت عن المرقاةِ بالقـــدمِ النّعْـــلُ [1]

وتلوح أمارات البداوة على هذه الأبيات بروحها الحماسية وجوها الحربي ، وصورها البدوية ، وبالاستشهاد بالوقعة المشرقية الشهيرة تـذكيراً بجـذور هـذا النزاع القبلي في المشرق .

أما الشعر الذي قاله القواد الذين خاضـوا فتنـة العـرب والمولـدين فـيقترب كثيراً من قصائد الحماسة المشـرقية في الجاهليـة ونقـائض العصـر الإسـلامي والأموي . وقد نشبت هذه الفتنة في عصر الإمـارة وتـزعم المولـدين فيهـا ابـن حفصون ، وتزعم العرب عدة قواد منهم سوار بن حمدون القيسي ، وعندما قُتل خلفه سعيد بن جودي السعدي (-٢٨٤هـ) وكان لكل من الفـريقين شـعراؤه ، وبرز من شعراء العرب يحيى بـن صـقالة ، والشـاعر الأسـدي ، وكـان العبلـي أشهر شعراء المولدين ، ودارت بين المعسكرين معارك شعرية شبيهة بالنقائض المشرقية في معانيها الحربية التي تـدور حـول الفروسـية ، والثـأر ، والتوعـد ، والفخر ، ورثاء الأبطال ، وفي ألفاظها البدوية والحربية ، وصـورها التقليديـة . وأمامنا نقيضتان للشاعر العبلي والشـاعر الأسـدي . يقـول العبلـي في الهجـوم على عرب إلبيرة :

منـــازلُهمْ منـــهم قفـــارٌ بلاقـــعُ تجاري السفا فيها الريـــاحُ الزعـــازعُ

وفي القلعةِ الحمـــراءِ تـــدبيرُ زيغهـــم ومنـــها علـــيهم تســـتديرُ الوقـــائع

كما حصدَتْ آبـــاءهم في ضـــلالهم أســـنّتُنا والمرهفـــاتُ القواطـــعُ

---

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء ٦٤/١ والحميدي . جذوة المقتبس في ذكـر ولاة الأنـدلس . تحقيق : الأسـتاذ محمـد تاويـت الطنجـي . نشـر مكتـب الثقافـة الإسـلامية ـ القـاهرة ص١٨٩ بتغيير يسير .

« مرج راهط » معركة جـرت بالشـام سـنة ٦٥هـ في عهـد مـروان بـن الحكـم ومعـه اليمنيون بقيادة حسان بـن مالـك الكلـبي ضـد القيسـيين المـوالين لابـن الـزبير وكـان يقودهم الضحاك بن قيس الفهري ، وانتهت بهزيمة الضحاك وانتصار اليمنـيين ، وتعـدّ معركة فاصلة دعمت قيام الدولة الأموية .

فيردُّ عليه الأسدي ناقضاً دعـواه علـى نحـو نستحضـر إزاءه نقـائض جريـر والفرزدق :

منازلُنـــا معمـــورةٌ لا بلاقـــعُ وقلعتُنا حصنٌ مـن الضـيم مـانعُ

وفيهـا لنـا عـزٌّ وتـدبيرُ نصـرةٍ ومنـها علـيكم تسـتتبُّ الوقـائعُ

ألا فـأذنوا منـا قريبـاً بوقعـةٍ تشيبُ لها ولـدائكمْ والمراضـعُ (١)

ويسـجل الشـعراء هـذه الحـروب الـتي خاضـها أمـراؤهم ضـد خصـومهم والخارجين عليهم ، ويصفون تلك المعارك مصورين زحف الجيوش ومادحين قوادهم ومشيدين ببسالتهم ومتغنّين بانتصاراتهم المبينة(٢) .

وفي غور هذا الصراع يتعالى صوت القائـد الفـارس معتـدًّا بإقدامـه وثبـات جنانه ، مزهوًّا بسلاحه وجواده ، متغنّياً بقيم الفروسية الجاهلية وغاياتها النبيلة . يقول سعيد بن جودي أحد زعماء هذه الحروب :

الدرعُ قد صـارتْ شـعاري فمـا أبسُـطُ حاشـاها لتـهجاع

والسـيفُ إنْ قصّـرَه صـانعٌ طوّلـه يـومَ الـوغى بـاعي (٣)

ولم يتخذ هذا الفارس طريقة العرب مسلكاً شـعريًّا فحسـب ، بـل اتخـذها إطاراً لإنشاد شعره أيضاً ، فثمة رواية تجلوه ينشد شعره في جوّ بدوي صـرف ملتمساً رموز العرب القدماء في اللباس والهيئة ، ووصْل الشعر بالخطابة . فقـد ((خطب بين يدي الخليفة المنذر وهو حَدَث أولَ ماأفضت الخلافة إليه ، وعليه

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ١٥٣/١، وابن حيان ـ القسم الثالث من كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس اعتنى بنشره الأب ملشورم . أنطونية باريس ١٩٣٧م ، ص٦٣.

(٢) انظر الحلة السيراء ١٥٠/١ ، ١٥١ ، والمقتبس ص ٥٨ ، والبيان المغرب ١٦٦/٢ ، ١٦٧.

(٣) الداية . دكتور محمد رضوان . ـ سعيد بن جودي دار الفكر . دمشق سورية ـ دار الفكر المعاصر بيروت ـ لبنان ط ١ ، ١٩٩٧م ، ص٨٨ ، والحلة ١٥٧/١ .

قباء خزّ ، وقد تنكب قوساً عربية ، والكنانة بين يديه خطب خطبة بليغة وصلها بشعر حسن))[1].

ولا ريب في أن مسلكه هذا ينم على حنين هذا الفارس العربي إلى الحياة العربية الأولى ، وهو إعلان عن استمرار الانتماء إليها في الأندلس ، ولا سيما أن سعيداً نشأ على التعصب للعروبة وكان زعيماً من زعمائها المنافحين عنها . فلا غرو أن يربطه هذا بالأصول والمحافظة في الحياة والأدب .

د ـ مدرسة القالي :

كانت وفادة القالي (-٣٥٦هـ) إلى الأندلس (٣٣٠هـ) نهضة كبيرة للدراسات الأدبية واللغوية ، كما كانت دفعاً قويًّا للذوق الأندلسي باتجاه طريقة العرب في مقابل مذهب المحدثين وذلك بما نقله معه من المشرق من مؤلفات ومجموعات شعرية ضخمة فضلاً عن كتب اللغة والأدب ، وبما صنّفه من مؤلفات أدبية ولغوية ، وبما أسس من مدرسة أدبية لغوية تُعنى بالدراسات القديمة .

أدخل القالي معه إلى الأندلس عدداً ضخماً من الدواوين الشعرية بلغت سبعة وسبعين ديواناً أغلبها لشعراء جاهليين وإسلاميين[2] ، وبعضاً من

---

(١) ابن الخطيب . لسان الدين ـ الإحاطة في أخبار غرناطة تحقيق : محمد عبد الله عنان . الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٣م ، ٢٧٦/٤ .

(٢) من دواوين الشعر الجاهلية التي أدخلها القالي شعر زهير بن أبي سلمى ، وعمرو ابن قميئة ، وعبيد بن الأبرص ، والمرقشين الأكبر والأصغر ، وامرئ القيس ، وطرفة ، ولبيد ، ودريد بن الصمة ، وقيس بن الخطيم ، وعنترة ، والشماخ بن ضرار التغلبي ، وشعر الأعشى،وعروة بن الورد ومن أشعار المخضرمين والإسلاميين شعر الحطيئة، والخنساء ، وسحيم ، وليلى الأخيلية ، وكثيّر ، وعمر بن أبي ربيعة ، والأخطل ، والفرزدق . انظر : ابن خير ـ فهرسة ابن خير . طبعة الشيخ فرنسشكه قداره زيدين وتلميذه خليان رباره طرغوه . ط ٢ ، ١٩٦٣م ، ص ٣٩٥-٣٩٧ وقد عقد ابن خير فصلاً خاصًّا عن كتب الشعر ودواوينه التي حملها القالي معه من المشرق . وذكر الكتب الأخرى في مواضع أخرى من كتابه . انظر : ص ٣٩٨ .

المجموعات الشعرية المهمة كالمفضليات ، وشعر هذيل ، ونقائض جرير والفرزدق . ولم يغفل أشعار بعض المحدثين كشعر أبي نواس ، وجزءاً من شعر أبي تمام ، وشعر أبي الطيب ، وشعر ابن المعتز ، وشعر الصنوبري[1] . وحمل معه عيون القصائد الجاهلية والإسلامية كقصيدة عمرو بن كلثوم ، وقصيدة لقيط بن يعمر الإيادي ، ومقصورة ابن دريد ، والمربعة لابن دريد ، وقصيدة كعب بن زهير في مديح الرسول عليه الصلاة والسلام . واتسمت هذه الأشعار بأهمية خاصة لأنها مما قرأه موثقاً على كبار العلماء المشارقة كابن الأنباري ، وابن دريد[2] .

وينم اهتمامه بالشعر القديم في الاختيار على إيثار جلي لطريقة العرب ، ويعزز ذلك أنه عُني من أشعار المحدثين بالشعر الذي يسير على النهج القديم المحدث لاتسامه في جانب عظيم منه بالطابع المحافظ .

وأثّرت هذه الأشعار في تدعيم الاتجاه الشعري القائم على اتباع طريقة العرب ، فأقبل الطلاب الأندلسيون على قراءتها ودراستها ، كما أقبلوا على نسخ ماكان يمليه القالي عليهم من أمال تتضمن ـ على الأغلب ـ الشعر القديم ، فأسهم هذا وذاك في تعهد الذوق الأندلسي وتوجيهه إلى ميادين المحافظة الشعرية .

ولم يكتف القالي بتجشّمه هذا الجهد العظيم في حمل تلك الكتب الكثيرة في رحلته الشاقة ، وإنما عمد إلى التصنيف والتأليف في مهاجره الجديد ، فصنّف كتباً عديدة في اللغة والأدب[3] ، واشتهر بكتابه (الأمالي) الذي أملاه من حفظه على المتأدبين في أيام الأخمسة في المسجد الجامع بالزهراء في قرطبة ،

---

(١) انظر : ابن خير . الفهرسة ص ٤٠٣-٤٠٤-٤٠٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق ص ٣٩٨ ، ٤٤٠ .

(٣) من هذه الكتب (المقصور والممدود) و(الإبل والخيل) ، و(البارع في اللغة) في خمسة آلاف ورقة لم يصنف مثله في الإحاطة والجمع ، وكتاب (فعلت وأفعلت) ، وكتاب (مقاتل الفرسان)، و(تفسير السبع الطوال). انظر : المقري . نفح الطيب ٣/٧٤،٧٥ .

وقدّمه إلى الخليفة المستنصر ، واكتسب كتابه هذا أهمية بالغة في الأندلس فكان أول كتاب من نوعه يؤلّف هناك . وهو مختارات أدبية تضمّ أشعاراً وأخباراً ونوادر ولغات وأمثالاً وحكماً كثيرة ، ويتسم الطابع العام لأشعار الأمالي بالبداوة والجزالة[١]. ويُعَدّ الكتاب بذلك محاولة بارزة لإرساء عناصر الثقافة العربية الخالصة ، ولا سيما إذا ماتذكرنا أن القالي كان يُمليه على الطلبة والمتأدبين إملاءً ، فكان يحقق لديهم عنصر الانفعال والتأثير المباشر ، فتتجه الأذواق إلى هذا المذهب الأدبي المحافظ . ولذا عُني أبو علي بانتخاب أماليه عناية بالغة،فانتخلها من عيون الشعر،والخبر،وغريب اللغة،وجيد المثل ليحقق غايته في تعريف الأندلسيين بالأدب المشرقي الأصيل ، وتوجيه أذواقهم نحو آفاق البداوة ، ومن ثَمَّ حفز ملكاتهم الأدبية للنسج على غرار مختاراته تلك .

أكثر القالي من انتخاب الأشعار الجاهلية والإسلامية والأموية . وإن كنا لانعدم أشعاراً لشعراء محدثين[٢] . لكنها قليلة جدًّا إزاء أشعار القدماء .

وتتبدى ملامح المذهب القديم في تخيُّر موضوعات أشعار الأمالي إذ تتراوح بين الحماسة والفخر بالبطولة والسمو الخلقي[٣] ، والرثاء[٤] ،

---

(١) انظر : أمثلة على ذلك في القالي ـ كتاب الأمالي منشورات دار الآفارق الجديدة بيروت ١٩٨٠م ، ١/٣٨-٣٩ ، ٤٧-٤٨-٤٩-٥٠ ، ٦٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٢٣ ، ٢/٤٩-٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٤-٢٨٥ ، ٣٢٤-٣٢٥ .

(٢) من الشعراء المحدثين الذين أورد لهم في أماليه مسلم بن الوليد انظر : ١/١٦٧، ٢/٨٤، ٨٥ ، وأبو نواس . انظر : ذيل الأمالي والنوادر ص٩٣ ، وأبو تمام والبحتري انظر : ١/٢٢٨، ٢٢٩ ، ودعبل . انظر : ذيل الأمالي والنوادر ٩٧، ٩٨، وأبو العتاهية : انظر : ١/٢٤٣ ، وجران العَوْد : انظر : ذيل الأمالي والنوادر ص ١٠٢ ، ويزيد ابن الطثرية . انظر :١/١٩٦، وذيل الأمالي والنوادر : ص١٠٤ وبشار ١/٢٢٦، ٢٢٨ ، وابن الرومي ١/٢٢٦-٢٢٧ ، وابن المعتز ١/٢٢٦-٢٢٨ ، وابن الجهم ١/٢٢٦ .

(٣) من الأمثلة على هذه الأشعار انظر : ١/٤٧-٤٨ ، ٧٨ ، ٢٢١ ، ٢٥٥-٢٥٦-٢٥٧ ، ٢٦٩-٢٧٠ ، ٢/١٠٢-١٠٣ ، ٢٦١ .

(٤) انظر مثلاً : ٢/١ ، ١٤١ ، ١٤٨ .

والحكمة[١]، والغزل العذري[٢] الذي عني بإيراد قصائده ومقطعاته عناية بالغة ، فأورد للشعراء العذريين المشارقة ، وأورد لشعراء الغزل غير العذريين ماينضوي تحت العذرية والسمو العاطفي بعيداً عن الحسية والتهتك[٣] . وكذلك أولى أشعار الرثاء عناية خاصة في أماليه[٤] .

وعني القالي بالمطولات عناية جلية انسجاماً مع غرضه في تعهد طريقة العرب في الشعر ، فأورد قصائد كثيرة[٥] بلغت حدًّا من طول النفس الذي وسم أشعار القدماء عموماً .

ويبرز الحرص على الجانب الخلقي في اختيار القالي لأشعار الأمالي مظهراً من مظاهر الميل إلى طريقة العرب في إيثار المعاني الشريفة ومجافاة الإسراف والتجاوزات الخلقية ((وذلك ملحوظ عند أئمة الرواية في بيئة الشعر المشرقية في حرصهم على الجانب الخلقي))[٦] ، فبرز السمو الخلقي في أشعار الفخر

---

(١) انظر مثلاً : ٢/٢٢٤-٢٢٥ .

(٢) انظر مثلاً : ١/١٢٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢/٥ ، ٤٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٥-٧٦ .

(٣) انظر مثلاً : ٢/١٩-٢٠ ، ٢٤ ، ٣٩ ، ٣٠٥-٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٢/٥٧ .

(٤) من الأمثلة على هذه الأشعار انظر : ١/٦١-٦٢ ، ٢/٧٢-٧٣-٧٤ ، ٨٥-٨٦ ، ١٤٣-١٤٤ ، ١٥٠-١٥١ .

(٥) من الأمثلة على هذه المطولات انظر : ٢/٣١٤-٣١٧ ، وذيل الأمالي والنوادر ٢-٤ ، ٨-١١ .

(٦) عبد الرحيم . دكتور مصطفى عليان . تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص ٢٧ . ومن الأمثلة على ذلك قصيدة عبد الله بن سبرة في رثاء يده التي قطعت في بعض غزواته مع الروم [انظر : الأمالي ١/٤٧-٤٨] ، وفي أبيات أيمن بن خريم الأسدي في التعفف وترك التصابي التي قدّم لها القالي بقوله (كنا نقول بالكوفة إنه مَنْ لم يروِ هذه الأبيات فلا مروءة له) انظر : ١/٧٨ ، وتجلى هذا المنحى الخلقي في قصيدة السموءل ابن عادياء في الفخر بالقيم العربية الأصيلة انظر : ١/٢٦٩ ، وفي شعر للمقنع الكندي انظر : ١/٢٨١ ، وقصيدة معن بن أوس انظر ٢/١٠٢، ١٠٣ ، والحكم بن عبدل الأسدي انظر : ٢/٢٦١ .

والحماسة . ويتصل بهذا الجانب الخلقي إقلال القالي من إثبات أشعار المديح عموماً ، ولا سيما الضرب القائم على المبالغة والغلو في معاني المدح على الرغم من كونه الغرض الشعري الغالب في عصره ، فضلاً عن العصور الأدبية التي سبقته . وتمتاز أشعار المديح التي أوردها بالاعتدال[١] . ولعل إقلال القالي من أشعار الهجاء أيضاً مظهر من مظاهر الحرص على الغاية الخلقية ؛ إذ اكتفى بإيراد مقطوعات في التهاجي بين أبناء الأسرة الواحدة بسبب الظلم والانتقاص[٢]، والطبع السخيف[٣]، وهو ((يرمي من الهجاء إلى أن يكون ذا مضمون عملي تربوي ، وهو بذلك إنما يحتفظ للأدب برسالة إنسانية عملية))[٤] .

ومن ملامح طريقة العرب في مختارات القالي الشعرية ولوعه بالقصائد والمقطوعات التي تمتلئ بالغريب وميله إلى شرحه . وهذا يفصح عن ثقافته اللغوية الواسعة وعنايته بهذا الجانب . ويلوح أنه كان يتعمد انتخاب الشعر ذي الغرابة اللفظية ليعكف على شرح غريبه ، وأن الألفاظ كانت تعنيه قبل أيّ شيء آخر[٥].

---

(١) انظر : مثلاً ١٦٥/٢ ، ٢٢٣-٢٢٤ .

(٢) انظر : ٢٥٦/١، ٢٥٧ .

(٣) انظر : ٨٢/٢ .

(٤) تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص ٢٧ . وذهب دكتور عليان إلى أن موقف القالي الخلقي من شعر الهجاء ترك أثراً بعيد المدى تجاوز تلامذته إلى شعراء الأندلس إذ خلت دواوين الشعراء من شعر الهجاء وكذلك كتب المختارات كالذخيرة وغيرها . انظر : ص ٢٨ .

(٥) من أمثلة الغريب وشرحه في الأمالي قصيدة كثير وشرح غريبها . انظر : ٦٢/٢-٦٦، وقصيدة الأبيرد الرباحي وشرح غريبها ذيل الأمالي والنوادر ص٢-٥ ، وقصيدة زياد الأعجم في رثاء المغيرة بن المهلب وشرح غريبها . ذيل الأمالي والنوادر ص ٨-١١ ، وقصيدة صخر الهذلي وشرحها ٢٨٤/٢-٢٨٦ ، وشرح قصيدة عينية لقيس بن ذريح ٣١٤/٢-٣١٨ .

ورأينا أن قصده للغريب من اللغات وغريب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كان من أسس منهجه في أماليه[١] .

ويتبدى أثر القالي في توجيه الذوق الشعري نحو المذهب القديم في مواقفه النقدية وتعليقاته على ماأورده من أشعار قديمة . فهو يورد قولاً عن البلاغة : ((البلاغة أن تُظهر المعنى صحيحاً واللفظ فصيحاً)) [٢] ، ويفصح عن إعجابه الشديد بقصيدة الرباحي التي رثى بها أحمد بن موسى بن حُدير لأنه بناها على مذاهب العرب وخرج فيها عن مذهب المحدثين[٣] ، وعدّ القالي خلف الأحمر ـ أعلم الناس بالشعر واللغة ـ أشعرَ الناس على مذاهب العرب[٤] . وعلى العموم كان نقد القالي يصب في محيط الاحتكام إلى صفاء الطبع ، ونقاء اللغة ، وفحولة المعاني ، والتعبير عن الفطرة السليمة[٥] .

استمرت جهود القالي في تعهد الذوق الأدبي على طريقة العرب مع طلابه الذين تمسكوا بمنهجه في النقد والدراسة والتصنيف . ومن هؤلاء تلميذه الزبيدي الذي رثى أستاذه بقصيدة صاغها صوغ فحول العرب وضمّنها قطعة من غريب كلامهم[٦] ، ومنهم الأعلم الشنتمري ، وأبو عبيد البكري ، وابن السيد البطليوسي . ويتبدى جنوح هؤلاء التلاميذ إلى المذهب القديم في دراساتهم

---

(١) يقول القالي في مقدمة كتابه موضحاً منهجه ذاك : ((وأودعته فنوناً من الأخبار وضروباً من الأشعار . . وغرائب من اللغات ... ثم لم أخله من غريب القرآن وحديث الرسول ﷺ)) ٣/١ .

(٢) انظر : ١٦٤/٢ .

(٣) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٣٩ .

(٤) انظر : الأمالي ١٥٦/١ .

(٥) انظر : تيارات النقد الأدبي في الأندلس ص ٦٧ .

(٦) انظر : الثعالبي أبو منصور . يتيمة الدهر ـ مطبعة الصاوي ـ مصر . ط ١ ، ١٩٣٤م ، ٧٠/٢ .

النقدية ؛ إذ عنوا بشرح الكتب التي تنضوي تحت هذا المذهب ، فنرى الأعلم الشنتمري يشرح الأشعار الستة[1] ، ويشرح أبو عبيد البكري أمالي القالي[2] فضلاً عن شرحه للأمثال مع غيره ، ويشرح ابن السيد البطليوسي سقط الزند للمعري وديوان المتنبي ذوي الاتجاه المحافظ . وبذلك تكونت من أولئك مدرسة أدبية ـ لغوية ـ نقدية حافظت على تقاليد أستاذها حتى عصور متأخرة من تاريخ الأندلس .

هـ ـ الغناء المشرقي :

ضرب الغناء المشرقي بسهم في تدعيم طريقة العرب في الشعر بتوجيه الأذواق إليها نظراً للأثر الذي يحدثه الغناء في تكوين الذوق الأدبي وصقله ، كما أنّ ((التفاعل بين الموسيقى والشعر ذو قدرة على توجيه الشعر وتحديد قوالبه)) [3] .

ولقد اعتمد الأندلسيون منذ تاريخهم المبكر على الغناء المشرقي ، واستقدم أمراؤهم الجواري المشرقيات . فاشترى عبد الرحمن الداخل من الجواري : العَجْفاء ، وفَضْل ، وعَلَم[4] وقَلَم . وكان بعض هؤلاء الجواري أديبات يروين الشعر ، ويحفظن الأخبار . فضلاً عن إحسانهنّ الغناء كقَلَم[5] . وشُغل الحكم ابن هشام بالغناء والشعر ، وكانت بعض جواريه يحسنّ نظم الشعر والغناء ، فكان يقترح عليهنّ الشعر الذي يغنّين فيه . ومكّنت هذه الجواري للمَثَل

---

(١) انظر : البيان المغرب ٢٨٤/٣ ، ومقدمة شرح حماسة أبي تمام ٦١/١ .

(٢) عمد البكري إلى شرح الأمالي في كتابيه (اللآلي في شرح الأمالي) و (التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه) انظر : نفح الطيب ١٨٤/٣ .

(٣) عباس . دكتور إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي . عصر سيادة قرطبة ص ٥٣ .

(٤) انظر : نفح الطيب ١٤٠/٣ . (٥) انظر : نفح الطيب ١٤٠/٣ .

الشعري المشرقي ، ولا سيما شعر التيار المحافظ الذي طغى في التلحين على شعر الاتجاه المحدث[1].

و ـ المتنبي والمعري :

أسهم دخول ديواني المتنبي والمعري إلى الأندلس في صقل الذوق الأندلسي ، وتعضيد طريقة العرب ؛ لاتسام شعرهما بالطابع المحافظ واستلهامهما من آفاق البداوة بصرف النظر عن بوادر التجديد فيه .

عرف الأندلسيون شعر أبي الطيب منذ مراحل مبكرة نسبيًّا[2] ، فثمة روايات تدل على لقاء بعض الأندلسيين الراحلين إلى المشرق به وإنشادهم إياه من أشعار أهل الأندلس ؛ إذ تطلع كثير من الأندلسيين الراحلين إلى لقاء

---

(١) حصر دكتور إحسان عباس الأصوات التي غنّاها جواري الحكم وابنه المغيرة ، فوجد الإقبال على تلحين أشعار العرب الأوائل أكثر من الإقبال على تلحين الأشعار المحدثة . وهذه الأصوات هي : أربعة أصوات في شعر ابن الرومي ، صوتان في شعر جرير والقطامي وذي الرمة وعمر بن أبي ربيعة ، وأبي تمام ، وصوت في شعر عروة ابن حزام ونصيب ، والبحتري ، والفرزدق ، ومسلم ، وابن الدمينة ، والحطيئة ، والمسيب بن علس ، والصمة القشيري ، وأبي دهبل الجمحي . انظر : عصر سيادة قرطبة ص ٥٥ .

(٢) من المؤكد أن شعر المتنبي وصل إلى الأندلس في حياته ، فقد استشهد به الحكم المستنصر . انظر : ابن حيان . المقتبس . تحقيق عبد الرحمن الحجي . نشر وتوزيع دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٥م ، ص ١٩٣ ، وكذلك أخذ الشاعر ابن فرج الجياني الذي يكاد يعاصر أبا الطيب معنى من معاني المتنبي . انظر : ابن دحية . المطرب . تحقيق : الأستاذ إبراهيم الأبياري ، و دكتور حامد عبد المجيد ، و دكتور أحمد أحمد بدوي . راجعه دكتور طه حسين . المطبعة الأميرية ـ القاهرة ، ١٩٥٤م ، ص٥، ٦، ونسبت بعض المصادر شرحاً لديوان المتنبي إلى الأديب اللغوي أبي عبدالله محمد بن أبان القرطبي المتوفى سنة (٣٤٥هـ) وهي السنة التي توفي فيها المتنبي ، انظر : الباباني . إسماعيل باشا ـ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون . وكالة المعارف ١٩٤٥م ، ٥٢٧/١ ، والبغدادي . إسماعيل باشا هدية العارفين طبعة استانبول ١٩٥٥م ، ٤٤/٢ .

أبـي الطيب ، وعدُّوا لقاءه مـدعاة للفخر والزهو فيما بينـهـم . فهــذا الخطيـب أبو الوليد بن عباد وقد حجّ ((فلمّا انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي واستشـرف ، ورأى أنّ لقيتـه فائـدة يكتسـبها ، وحلّـة فخـر لايحتسـبها ، فصـار إليـه)) [١] . واستنشده المتنبي بمصر أيضاً وروى عنه شيئاً مـن شـعره[٢] . وأنشـد المتـنبي شعراً لابن هذيل فأفرط في استحسانه ناعتاً شاعره بأنه أشعر القوم[٣] .

أدخل شعر المتنبي إلى الأندلس لأول مرة على يد زكريا بن بكر المعروف بابن الأشج الذي رحل إلى المشرق ولقي أبا الطيب بمصـر وأخـذ عنـه ديـوان شعره رواية ، ثم رحل إلى الأندلس فأدخل ديوانه[٤] . كما أدخـل أبـو عبـد الله محمد بن أحمد بن قادم القرطبي شعر المتنبي إلى الأنـدلس بعـد أن رواه عـن صاحبه[٥] .

وظفر شعر المتـنبي بالاستحسـان والإقبـال مـن الخاصـة والعامـة ، وتـوفر الشراح الأندلسـيون علـى شـرح ديوانـه كـابن الإفليلـي (-٤٤١هــ) ، والأعلـم الشنتمري (-٤٧٦هـ) الذي شرح بعض قصائده ، وابن سيده (-٤٥٨هـ) الـذي شرح مشكل شعره ، وابن السيد البطليوسي (- ٥٢١هـ) ، كمـا أولـع الشـعراء بشـعره وأقبلـوا علـى معارضـته ومحاكاتـه إثباتـاً للمقـدرة ، فغـدت محاكاتـه ((محكًّا للجودة عند الأندلسيين)) [٦] .

---

(١) ابن خاقان . الفتح . ـ مطمح النفس ومسـرح التـأنس في ملـح أهـل الأنـدلس . مطبعـة السعادة ـ مصر . بلا تاريخ ، ص ٥٩ .

(٢) انظر : المقري . نفح الطيب ٢٢٢/٢ .

(٣) انظر : ابن بسام . الذخيرة ١/٢ : ٥١٥ .

(٤) انظر : ابن الفرضي ـ تاريخ العلماء والـرواة للعلـم بالأنـدلس . عـني بنشـره وصـححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني القاهرة ١٩٥٤م ، ص ١٧٩/١ .

(٥) انظر : ابن خير . الفهرسة ص ٤٠٣ .

(٦) انظر : عباس . دكتور إحسان ـ تـاريخ الأدب الأندلسـي . عصـر الطوائـف والمـرابطين بيروت ـ ط ٧ ، ١٩٨٥م ، ص ١٠٩ .

وحين برز أبو العلاء المعري في المشرق وصل إلى الأندلس ذكره وعُرفت فيها كتبه وأشعاره عن طريق الأندلسيين الراحلين ، والمشارقة الوافدين ؛ إذ رحل بعض الأندلسيين للأخذ عنه . منهم أبو الربيع سليمان بن أحمد السرقسطي ، وأبو تمام غالب بن عيسى الأنصاري ، وأبو عبد الله بن جابر القرطبي . ومن الوافدين أبو عمر السفاقسي الذي روى شعر المعري عنه وهو أستاذ الحميدي ، وأبو الفضل البغدادي الذي روى أيضاً شعر المعري عنه . وهو أستاذ ابن السيد البطليوسي شارح ديوان سقط الزند .

حظي المعري بمكانة سامية بين الأندلسيين اقتربت من مكانة أبي الطيب لديهم ؛ إذ أعجبوا بمواهبه العالية وأشادوا بجمعه العجيب للمعارف والعلوم المتنوعة[1] . وإن كانوا لا يساوونه بالمتنبي الذي كان لديهم نسيج وحده فـ((شأن أبي العلاء عظيم وحكم نقدة الكلام فيه أنه لم يكن في صنعة النظم والنثر مثله لاقبله ولا بعده إلا ماكان من أبي الطيب في الشعر وحده))[2].

واللافت للنظر أن أثر المعري كان أبرز في ميدان النثر . أما في الشعر فظهر أثره ـ كما ظهر أثر أبي الطيب ـ في ميل الشعر إلى الجزالة وإيثار الفخامة والقوة تحقيقاً لطريقة العرب وتوجيهاً للذوق الشعري إليها .

ز ـ شعراء آخرون :

أسهم نفر من شعراء المذهب القديم في المشرق في صقل الذوق الأندلسي وتوجيهه نحو أبواب القوة والجزالة . كالشريف الرضي ومهيار الديلمي وعبد المحسن الصوري لما امتاز به شعرهم من نفحات بدوية ، وتغنّ بالمرابع

---

(١) انظر : الكلاعي . ابن عبدالغفور ـ إحكام صنعة الكلام تحقيق : الداية . دكتور محمد رضوان . دار الثقافة بيروت ـ لبنان ١٩٦٦م ، ص ١٣٥ .

(٢) إحكام صنعة الكلام ص ١٣٥ .

الحجازية وما يتصل بها من مشاعر وجد وهيام رقيقَيْن . وربما كان ابن خفاجة من أبرز الشعراء الذين شغفوا بهذا المسلك الشعري ، وشرعوا يستلهمون مجاليه الفاتنة ، ويتغنون بها معارضين . يقول في ذلك : ((فما تصفّحْتُ مثل شعر الرضي ، ومهيار الديلمي ، وعبد المحسن الصوري وما حذا حذوه وأخذ مأخذه حتى تملكني من تلك المحاسن الرائعة الرائقة ، والألفاظ الشفافة الشائقة ماينا سب بُرْد الشباب رقة ، وبرد الشراب رَيْقه ، فما كان إلا أن ملتُ إليه ، وأقبلتُ عليه أروِّقه وأروِّيه ، وأحاول التشبه بواحدٍ واحدٍ فيه))[1] . ومن أمثلة ذلك قوله يترنم بهذه العوالم البدوية باعثاً تحيته مع النسائم الأرجة مرسلاً أشواقه إلى الأماكن الحجازية المعهودة ، مستحضراً مشاعر الشباب ووقدات الألم والشكوى . يقول :

ألا ليتَ أنفاسَ الرياحِ النواسمِ يحيّينَ عنّي الواضحاتِ المباسمِ
ويرمينَ أكنافَ العقيقِ بنظرةٍ تردّدُ في تلك الربى والمعالمِ
ويلثمنَ مابين الكثيبِ إلى الحمى مواطئَ أخفافِ المطيِّ الرواسمِ[2]

٣- الذوق الأندلسي ومذهب المحدثين :

دخل المذهب المحدث الأندلس حين كان الشعر الأندلسي في طور النشوء والتكوين ، فاشتدت حماسة الأندلسيين لهذا المذهب وتقديرهم لشعرائه ، ونسجهم على منواله ، فحقق في فترات كثيرة من تاريخ الأندلس سيادة طاغية على ماعداه ، وتفرد ببواعث عديدة أسهمت في ميل الذوق الأندلسي إليه . أهمها :

---

(١) ديوان ابن خفاجة ـ تحقيق : دكتور سيد غازي . منشأة المعارف بالإسكندرية ـ ط ٢. ١٩٧٩م ، ص ٦ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص ٢٥٨ .

أ- المؤدبون والوافدون من المشرق :

دخل مذهب المحدثين المشرقي إلى الأندلس على يد فئة من المؤدبين الذين رحلوا إلى المشرق ، وتلقوا العلم والأدب على شيوخه وأدبائه ، وعادوا يرسون دعائم هذا المذهب في الأوساط الأدبية الأندلسية ، ويقومون بتدريس نماذجه فيتلقاه عنهم الطلبة والمتأدبون . ولعل أسبق أولئك المؤدبين إلى رواية أمثلة من شعر المحدثين عباس بن ناصح (- ٢٣٨ هـ) الذي رحل إلى العراق في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط لما سمع ببروز أبي نواس ، فالتقى به وسمع منه شعره ، ورواه عنه في الأندلس[١] ، فتأثر به الأندلسيون وحاكوه وظهر أثره جليًّا في أشعار بعض الأندلسيين .

وتتبدى في رواية رحيل عباس بن ناصح إلى المشرق للقاء أبي نواس حماسةُ الأندلسيين لهذا الشعر المشرقي المحدث وترقُّبهم الوافدين إليهم الحاملين إليهم أنباء الشعر على اختلاف مذاهبه ، وأخبار شعرائه . يتحدث عبد الوهاب بن عباس بن ناصح عن رحلة أبيه إلى المشرق قائلاً : ((كان أبي لايقدم من المشرق قادمٌ إلا كشفه عمّن نجم في الشعر بعد ابن هرمة حتى أتاه رجل من التجار ، فأعلمه بظهور حسن بن هانئ وارتحاله من البصرة إلى بغداد ، والمحلّ الذي حلّه من الأمين وبني برمك ، فأتاه من شعره بقصيدتين... فقال أبي : هذا أشعر الجن والإنس ، والله لاحبسني عنه حابس ، فتجهز إلى المشرق...)) [٢] . فعلى الرغم من ميل عباس إلى طريقة العرب في ذوقه الشعري إذ كان يتابع مَن برز في الشعر بعد ابن هرمة ، وفي مذهبه الشعري إذ تنضوي أشعاره تحت المذهب القديم ، فقد أفرط في استحسان هذا الشعر المحدث ، وعزم على تجاوز كل صعب ، ولقاء الشاعر المشرقي لمجرد سماع

(١) انظر : طبقات الزبيدي ص ٢٨٤، ٢٨٥ .
(٢) طبقات الزبيدي ص ٢٨٤، ٢٨٥ .

قصيدتين من شعره . كما تفصح هذه الرواية عن أثر التجار المشارقة والأندلسيين في نشر هذا الشعر المحدث ، وفي صياغة الذوق الأندلسي بتوجيهه إليه ولا سيما أن بعض أولئك التجار كان ينطوي على قدر جيد من الثقافة الأدبية ، فهو يروي أخبار الشاعر ، ويحفظ بعضاً من شعره ويحسن روايته .

ومن أبرز الشعراء المحدثين الذين حرص أولئك المؤدبون على إشاعة أشعارهم أبو تمام الذي ظفر شعره باهتمام خاص واستحسان بالغ في أوساط اللغويين والأدباء ، وقد قام بنقله عثمان بن المثنى (- ٢٧٣هـ)الذي رحل إلى المشرق ولقي حبيباً وقرأ عليه شعره[١] ، ورحل مؤمن بن سعيد (- ٢٦٧هـ) أيضاً وروى شعر أبي تمام عنه[٢] ، وقد تلقى اللغويون والمؤدبون هذا الشعر وعكفوا على تدريسه وشرحه للطلبة . من هؤلاء أبو عبد الله الغابي الذي كان يُقرأ عليه شعر حبيب ، فأخذه عنه أبو العباس الطبيخي[٣] ، فشرحه هذا شرحاً مبسوطاً قريباً فضلاً عن شرحه شعر صريع الغواني[٤] . واتسع الاهتمام بشعر الطائي وتعمق فيما بعد فغدا موضوعاً يستقطب حوله مجموعات من العلماء تتوفر على دراسته وفهمه والتفقه فيه ، فعُرفت طبقة من المؤدبين شُغلت بمعاني شعره فضلاً عن أشعار غيره من المحدثين أبرزها ابن الأصفر[٥] . وأفضت جهود هؤلاء المؤدبين إلى سيادة شعر أبي تمام في الذوق الأدبي الأندلسي ،

---

(١) انظر : طبقات الزبيدي ص ٢٨٨ ، وابن الفرضي . تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس . ٣٤٦/١ .

(٢) انظر : المغرب ١٣٢/١ .

(٣) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣١٥ .

(٤) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٢٩ .

(٥) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٢٨ .

فتوفر شعراء الأندلس على معارضته في بعض قصائده كقصيدته في وصف الربيع[١] ، وقصيدته في وصف القلم[٢].

وامتدت العناية بشعر الطائي إلى الحكام ، فحرص الخليفة عبد الرحمن الناصر على نسخ شعره ، وأمر ثلة من أدباء الأندلس يومئذ بتحقيق ذلك[٣].

وتبدى أثر أبي تمام جليًّا في الشعر الأندلسي في الجنوح نحو الغرابة في المعنى ، والطرافة في الصورة ، وفي العناية بالطباق ، والبعد في الاستعارة .

وبهذا كله شرع مذهب المحدثين يترسخ في البيئة الأدبية الأندلسية ، وتمّ صقل الذوق الأدبي الناشئ وتربيته على الشعر المحدث ، وصارت خصائص شعر المحدثين معايير فنية للاستحسان والقبول ، فغدت غرابة الشعر وحسن معناه مقياساً لتفضيله[٤] . واشتدت حماسة المتأدبين لشعر هذا النهج وغدا مايخالفه خروجاً على الذوق السائد ، فحين نظم الرباحي الشاعر (- ٣٥٨هـ) قصيدة في الرثاء وبناها على مذاهب العرب وخرج فيها عن مذاهب المحدثين لم يرضها العامة[٥] . وانطلاقاً من مبدأ إيثار الغرابة في الشعر أفرط الأندلسيون في استحسان قصيدة أبي تمام في وصف القلم وتقديمها ورأوا أنه لم يتقدمه

---

(١) هي القصيدة التي مطلعها :

رقّتْ حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسَّرُ

وقد عارضها أبو بكر بن نصر . انظر : الحميدي . ص٣٦٩، ٣٧٠ ، وعارضها أيضاً ابن قَلْبيل البجّاني . انظر : الجذوة ص ٣٦٦ .

(٢) انظر : معارضة ابن عبد ربه قصيدة أبي تمام في القلم في ديوانه . تحقيق : الداية . دكتور محمد رضوان . دار الفكر المعاصر ـ بيروت . لبنان . دار الفكر ـ دمشق ـ سورية . ط٢ ، ١٩٨٧م ، ص١٠٤ .

(٣) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٠٦، ٣٠٧ .

(٤) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٠٧ .

(٥) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٣٩ .

فيها متقدم ولا لحقه فيها متأخر[١] . ولذا هبّ ابن عبد ربه يحاكيها بقصيدة نهج فيها سبيل الطائي في الغوص على المعاني[٢] .

ولم يقنع أولئك المؤدبون بنقل شعر الاتجاه المحدث إلى الأندلس وتوجيه الذوق الأدبي نحوه ، بل عمدوا إلى تعزيز هذا الميل بنقدهم لأشعار المحدثين ، وذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فعني بعضهم بدراسة شعر شاعر بعينه والتبصر بمعانيه . من هؤلاء المؤدبين أبو عبد الله بن الأصفر المكفوف و ((كان مؤدباً بالقرآن والشعر والحديث والنحو ، وكان له حظ من علم النحو... وبصر بمعاني شعر حبيب وغيره من أشعار المحدثين)) [٣] . ومنهم أبو حفص عمر ابن يوسف الخيطي (-٣٣٨هـ) وكان من أهل العلم بمعاني الشعر حسن التكلم فيه ، وخصوصاً شعر البحتري الذي كان يتعصب له أيضاً[٤] ، ومنهم أبو العباس الطبيخي (-٣٠٥هـ) الذي كان بصيراً بمعاني الشعر حسن التفسير لها ، وقد جمع إلى ذلك شروحاً في شعر حبيب وصريع قريبة مبسوطة[٥] . أما أبو القاسم الإفليلي فجمع التخصص بمعاني المحدثين فضلاً عن بصره بمعاني الشعراء الأوائل مع حسن الاستنباط لها فـ ((قد بذَّ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي ، والضبط لغريب اللغة ، في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية ، والمشاركة في بعض معانيها))[٦] ، وكان في الوقت نفسه كثير العناية بأشعار بعض المحدثين فقد صنف كتاباً في شرح معاني شعر المتنبي وصفه ابن حزم بأنه كتاب حسن[٧] .

وعني الوافدون إلى الأندلس بتعزيز الذوق الأدبي على شعر المحدثين ، وكان هؤلاء قد أدركوا بالمشرق أعلام الشعراء المحدثين ، ورووا عنهم شعرهم ،

---

(١) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٠٧ .
(٢) انظر : قصيدة ابن عبد ربه في ديوانه ص ١٠٤ .
(٣) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٢٨ .
(٤) انظر : طبقات الزبيدي ص٣٣٠ .
(٥) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٢٩ .
(٦) الذخيرة ١/١ : ٢٨١ .
(٧) انظر : جذوة المقتبس ص ١٤٢ .

ومن ثَمَّ أدخلوه إلى الأندلس . وكان منهم شعراء أقاموا لدى ملوك الأندلس ينشدون شعراً على المذهب المحدث . من هؤلاء إبراهيم بن سليمان الشامي الذي أدرك بالمشرق كبار المحدثين كأبي نواس وأبي العتاهية[1]، ومنهم أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني البغدادي الذي لقي كبار شعراء المشرق المحدثين كأبي تمام ، والبحتري ، ودعبل ، وابن الجهم ، وأدخل إلى الأندلس رسائل المحدثين وأشعارهم وله رواية لشعر أبي تمام[2]. ومن هؤلاء أبو الفضل محمد بن عبد الواحد التميمي الدارمي البغدادي اجتمع بأبي العلاء في المعرة وأنشده بعض شعره ، وأقام بطليطلة لدى المأمون بن ذي النون ، ويغلب على شعره الطابع المحدث في طلب الصورة ، والغوص على المعنى ، والقصد إلى الابتكار والجدة فيهما ، والعناية ببعض فنون البديع[3] . من ذلك قوله مستخدماً حسن التعليل جانحاً إلى توليد الصورة :

ومعذَّر نقشَ الجمالُ بمسكه خدًّا له بدمِ القلوبِ مضرَّجا
لمّا تيقّن أنّ سيفَ جفونِهِ من نرجسٍ جعلَ العذارَ بنفسجا[4]

ب ـ التفاعل الأدبي مع المشرق :

أسهمت ظروف التفاعل الأدبي بين الأندلس والمشرق في التفات الذوق الأندلسي إلى شعر الاتجاه المحدث . ذلك أن الشعر في المشرق كان قد قطع آماداً طويلة عندما نشأ الشعر الأندلسي ، وقد ساد الاتجاه المحدث في البيئة الشعرية المشرقية ، وشاعت تيارات شعرائه ومناحيهم الفنية فيها . بل إن الشعر الأندلسي ـ على وجه التحديد ـ ((أخذ يتكون حين كان الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس ، ويقف على مفترق الطرق بين مذهبي أبي تمام

(١) انظر : نفح الطيب ١٢١/٣ .
(٢) انظر : نفح الطيب ١٣٤/٣، ١٣٥ .
(٣) انظر : أشعاره في نفح الطيب ١١٢/٣-١١٨ .
(٤) نفح الطيب ١١٤/٣ .

والبحتري . ولما كان الأندلسيون حينئذ يلتفتون في كل شيء إلى المشرق ، فقد اتخذوا شعر المحدثين مثالاً يقلدونه ومناراً يهتدون به ، أي أنّ الشعر المحدث لاشعر العرب الأوائل هو الأنموذج الكبير الذي استوحوه في أشعارهم ، وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل . ولكن نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم))[1] . وهكذا شاع هذا المذهب بين شعراء الأندلس وغلب على الاتجاه القديم ولا سيما في عصر الخلافة الأموية ، إذ انتصر أنصار الحداثة لأشعار المحدثين التي كانت تصلهم ، وشرعوا ينسجون على منوالها .

ج ـ النهوض الاجتماعي والثقافي :

دخل المذهب المحدث الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (-٢٣٨هـ) الذي يعدّ العصر الذهبي للإمارة إذ بلغت أوج قوتها وعظمتها ، ونعمت البلاد الأندلسية بالاستقرار والأمن بعد أن قضى الأمير عبد الرحمن على الفتن والثورات في الداخل ، وردّ هجوم الأعداء النورمان في الخارج[2] ، ونهضت البلاد في عهده نهضة اجتماعية وحضارية رائعة بقدوم زرياب (-٢٣٠هـ) وما أحدثه في مجتمع الأندلس من رقي وآداب وفنون اجتماعية ، وبشيوع مجالس الغناء والطرب ، وبالميل العام إلى الترف واللهو والتأنق . كل ذلك عزّز الجنوح إلى الشعر المحدث لتمثيله الواقع الحضاري وتجاوبه مع أصداء التحضر والرقي . ودفع الشعراء إلى التغني بأجواء الحضارة والترف ، فظهرت موضوعات جديدة كوصف المنشآت العمرانية والمباني السلطانية ،

---

(١) عباس . دكتور إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي . عصر سيادة قرطبة ص ٤٧ .

(٢) انظر : ابن الخطيب . لسان الدين ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . أو تاريخ إسبانيا الإسلامية ـ تحقيق وتعليق : ليفي بروفنسال ـ ط ٢ ـ دار المكشوف ـ بيروت . ١٩٥٦م ، ص ١٨-٢٠ .

وبرز موضوع اللهو والمجون والغزل بالمذكر ، وشاعت الخمريات . ومالت لغة الشعر إلى السهولة والعذوبة والرقة .

وأسهم النهوض الثقافي الذي أخذت الأندلس بأسبابه في تدعيم الميل إلى مذهب المحدثين ، فقد قفزت الثقافة عصر دخول المذهب المحدث إلى الأندلس قفزة رائعة ؛ إذ كان الأمير عبد الرحمن الأوسط معنيًّا بالعلوم ((يداخل كل ذي علم في فنه)) [1] . وأسهم في إغناء الحركة العلمية بتقريب العلماء وبتشجيع الرحلة العلمية إلى المشرق[2] . وسارت هذه النهضة ـ فيما بعد ـ تتسع وتتعاظم لتشمل مختلف العلوم حتى بلغت قمّة توهجها في عصر الخلافة الأموية ، ثم شرعت تترجح بين مدّ وجزر حتى نهاية عهد المسلمين بالأندلس . ولا ريب في أن هذه النهضة الشاملة عزّزت ميل الذوق الأندلسي إلى المذهب المحدث ، فتسربت إلى الشعر آثار هذه النهضة ، وتجاوبت فيه ـ بنسب متفاوتة ـ أصداء من علوم اللغة ، والفقه ، والحديث ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والفلسفة وغيرها من جوانب الثقافة الإسلامية آنذاك .

د ـ الغناء المشرقي :

كما أسهم الغناء المشرقي في ميل الأذواق إلى شعر المذهب القديم أثَّر أيضاً في توجيهها نحو الشعر المحدث ، إذ عزّزت الأشعار المشرقية المحدثة التي غنّتها الجواري هذا المذهب في البيئة الشعرية الأندلسية بعد أن تغنى بها الشعراء ومالوا إلى محاكاتها . ومرَّ بنا أن جواري الأمير الحكم وابنه المغيرة غنين بأشعار المحدثين ـ فضلاً عن أشعار القدماء ـ كأبي تمام ، وابن الرومي ، والبحتري ، ومسلم بن الوليد ، وابن الدمينة .

---

(١) ابن سعيد ـ المغرب في حلى المغرب . تحقيق : دكتور شوقي ضيف . دار المعارف بمصر ـ القاهرة ، ١٩٥٥م ، ٤٥/١ .

(٢) من ذلك أنه أرسل عباس بن ناصح إلى العراق التماساً للكتب القديمة . انظر : المغرب ٤٥/١ .

٤- الذوق الأندلسي والمذهب القديم المحدث :

ظهر هذا المذهب الشعري في عصر الخلافة الأموية صورة من صور التمازج الفني بين المذهبين الشعريين الكبيرين اللذين تجاذبا الشعر الأندلسي على امتداد تاريخه ، إذ جمع بين سمات المحافظة والتجديد ، فاستلهم شعراؤه تقاليد القصيدة العربية ـ في بنائها الفني وفي روحها العامة مع التمسك بالجزالة والقوة والميل إلى الغريب ـ دون أن يعرضوا عن متطلبات الحداثة ودواعي التجديد في السعي إلى الصورة الغريبة والمعنى المولّد ، والعناية بالزينة البديعية . ولهذه الخصائص اقترن هذا المذهب بالشعر الرسمي ، وغدا المذهب المؤثَر لدى شعراء المديح الأندلسي منذ هذا العصر ـ عصر الخلافة ـ حتى نهاية تاريخه . ولقد أفضت بواعث عديدة إلى ميل الذوق الأندلسي إلى هذا المذهب لعل أبرزها :

أ- دخول أشعار أعلامه :

أسفر دخول أشعار أعلام هذا المذهب إلى الأندلس عن ميل الأذواق إليه . ولا سيما شعر أبي الطيب والمعري ، فهما أبرز ممثلين لهذا المذهب إذ ((ارتدّا إلى المعين البدوي ومزجا مااغترفا منه بالتجربة العميقة والآراء الفلسفية ، فكان ماحققاه في هذا المجال تجديداً من داخل المحافظة على الشكل القديم))[١].

أما المتنبي فكان انتقال ديوانه إلى الأندلس من عوامل تعضيد الميل إلى المذهب القديم المحدث كما كان ـ مع شعر المعري ـ من بواعث توجيه الذوق إلى طريقة العرب كما رأينا ؛ فأبو الطيب أبرز ممثل لهذا المذهب الشعري لجمعه خصائص المذهبين الشعريين السابقين بعودته إلى آفاق الفحولة والجزالة ، وتحليقه في أجواء البداوة ، وعنايته بالغريب ، فضلاً عن تصويره التجارب النفسية ، وترجيعه أصداء الثقافة ولا سيما الفلسفية ، وإذا كان المتنبي قد حاز إعجاب الأندلسيين واستحسانهم لطريقته الشعرية ، فلا جرم أن دخول

---

(١) عباس . دكتور إحسان . عصر الطوائف والمرابطين ص ١١٠ .

ديوانه الأندلس أثار عناية الشعراء بمذهبه ذاك وميلهم إلى النسج على منواله معارضةً ومحاكاة وتمثلاً . ومن أبرز الشعراء الذين أولعوا باقتفاء نهجه الشعري الرمادي (-٤٠٣هـ)، وابن دراج (-٤٢١هـ)، وابن هانئ (-٣٦٢هـ) ، الذي شغل بشعر أبي الطيب والجري في ميدانه ، وابن زيدون (- ٤٦٣هـ) ، وابن عبدون (- ٥٢٩هـ) ، وابن وهبون (- ٤٨٤هـ) ، وغيرهم . وإنَّ من تصفح (الذخيرة) ليروعه هذا الأثر الباهر لطريقة الشاعر المشرقي الكبير في أشعار الأندلسيين . وقد تتبع ابن بسام هذا الأثر مبرزاً اقتفاء هؤلاء معاني المتنبي ومعارضتها ومحاولتهم اللحاق بشأوه[١].

وكان دخول شعر المعري أيضاً باعثاً قويًّا على جنوح الذوق الشعري إلى هذا المذهب الجديد ولا سيما في عصر الطوائف والمرابطين لما اتسم به شعره من طابع بدوي في اللغة وإيثار للغريب والجزالة ، فضلاً عن خوضه في قضايا الفلسفة وميله إلى العمق الفكري . وعلى ذلك أحدث شعر أبي العلاء أثراً مهمًّا في البيئة الشعرية الأندلسية ، فأقبل شعراؤها على محاكاة شعره ، ولا سيما في بعض المسالك الفنية التي امتاز بها كمذهبه الشهير في لزوم مالا يلزم الذي أولع به العديد من الشعراء كابن خفاجة ، فبرز في شعره ظاهرة جلية[٢] ، وظهر لدى العديد من شعراء الأندلس المتأخرين[٣] . وعلى الرغم من اقتفاء بعض الأندلسيين خطا المعري في الجانب الفلسفي من شعره فإنه يلوح أن هذا الجانب ـ وهو جانب بارز في شعره ـ لم يلاق هوى في

---

(١) انظر : على سبيل المثال : الذخيرة ١/١ : ٧٥ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٥٣، ٣٨٦ ، ٢/١ : ٧٢٠ ، ١/٢ : ٣٨٦ ، ٤٩٧ ، ٢/٢ : ٦١٨ ، ٧١٦ ، ٧١٧ .

(٢) انظر أمثلة على هذه الظاهرة في ديوانه ـ تحقيق : دكتور السيد مصطفى غازي . منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٦٠م ، ص ٦٨-٦٩-٧٠-٧١-٧٢-٨٢-١٠١-١٤٨-١٥١-٤٢٩.

(٣) انظر : ديوان عبد الكريم القيسي ، تحقيق : دكتور جمعة شيخة ودكتور محمد الهادي الطرابلسي ـ تونس . ١٩٨٨م ، ص٤٧٢ .

نفوس عموم الأندلسيين وفي أشعارهم . وعلى ذلك شُغلوا بالجانب الفني المتصل بالشكل أكثر من عنايتهم بالمضمون الفكري . ولعل في موقف الأندلسيين المحافظ ـ عموماً ـ من الفلسفة ما يفسر إعراضهم عن هذا الملمح الفكري ، ولا سيما إذا ما اقترب من دائرة الغلوّ ، والشك ، والمساس بالعقيدة الدينية[1].

ب ـ الظروف الأندلسية :

أفضت الظروف الأندلسية الحضارية في عصر الخلافة الأموية إلى صياغة الذوق الأندلسي على هذا المذهب الجديد ، إذ بلغ المجتمع الأندلسي آنذاك ذروة التحضر والازدهار ، ونضجت مظاهر الرقي الاجتماعي والفكري والثقافي ، فكان هذا التيار الشعري ملائماً للتعبير عن واقع هذا المجتمع ونوازع أفراده النفسية والفكرية والحضارية لتشبثه بالميراث الأصيل من جهة ، وإقباله على ميادين الجدّة والتحديث من جهة أخرى . وإذا ماقسنا ظروف نشوء هذا المذهب في المشرق بظروف نشوئه في الأندلس ألفينا تشابهاً بيّناً وتقارباً جليًّا ، فقد نشأ التيار القديم المحدث في المشرق في النصف الثاني من العصر العباسي الأول حين كان المجتمع العباسي في أعلى مراقي الحضارة والنضج والقوة ((بعد أن هدأت حدّة الانبهار باللقاء الأول مع المستحدثات الحضارية ، وبعد أن شبع شعراء القرن الثاني ثورة ولهواً ومجوناً ، وبعد أن جاء القرن الثالث وقد ألف المجتمع العربي الحضارة ومستحدثاتها ، ولم يعد

(١) انظر في الموقف الأندلسي من الفلسفة في نفح الطيب ٢٢١/١ ، ١٨٦/٣ ، وبالنثيا . آنخل جنثالث ـ تاريخ الفكر الأندلسي . ترجمة دكتور حسين مؤنس . ط ١ ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م ، ص ٣٦٣-٣٦٦ . والمراكشي عبد الواحد . المعجب في تلخيص أخبار المغرب . ضبطه وصححه وعلق عليه وقدم له محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ـ ط ١، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٩م ، ص٢٣٦-٢٣٧ ، ٣١٠-٣١١-٣١٢-٣٨٤-٣٨٥ . وابن عذاري المراكشي . البيان المغرب ٤٣٧/٢ . وصاعد أبو القاسم بلا تاريخ . طبقات الأمم مطبعة السعادة بمصر ص١٠٢، ١٠٣.

يجنُّ بها فيفقد اتزانه كما فعل من قبل جيل أبي نواس)) [1] . وكذلك كانت الحال في الأندلس عصرَ بروز هذا المذهب الشعري فيها ، فاستقرت ملامح التحضر المختلفة ، وغدت أمراً مألوفاً لايثير حماسة ولا يقتضي انبهاراً ، ولذا تمت صياغة الذوق الأندلسي على هذا المذهب ، واتجه الأندلسيون إلى اعتماده نهجاً شعريًّا موافقاً لواقعهم الحضاري والعقلي والثقافي .

ج ـ الحكام :

عني بعض حكام الأندلس بتوجيه الذوق إلى أشعار هذا المذهب ، فقد أفصح بعضهم عن إعجابه بنهج المتنبي الشعري ، وكانت لهم مواقف نقدية إزاء شعره . فهاهو ذا المعتمد بن عباد يعجب بقول المتنبي :

أزورهم وسوادُ الليل يشفعُ لي وأنثني وبياضُ الصبح يُغري بي

وينفذ إلى نقدٍ خفيّ فيه متمثلاً في مطابقة الصبح بالليل ؛ إذ الليل كلّي والصبح جزئي [2] .

وأثار إعجاب الحاكم الأندلسي بالمتنبي ردود فعل عديدة لدى بعض الشعراء . فيروى أن المعتمد بن عباد حين استحسن قول المتنبي :

إذا ظفرتْ منكَ العيونُ بنظرةٍ أثاب بها مُعْيي المطيّ ورازمُهْ

انبرى عبد الجليل بن وهبون يجيبه بديهاً :

لئن جادَ شعرُ ابن الحسينِ فإنّما تجيدُ العطايا واللُّها تفتحُ اللَّها

تنبّأ عُجْباً بالقريضِ ولو درى بأنّك تروي شعره لتألّها [3]

---

(١) هيكل . دكتور أحمد ـ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ط . الحادية عشرة ، ١٩٩٤م ، ص ١٩٧ .

(٢) انظر : نفح الطيب ص ٢٦١ .

(٣) نفح الطيب ١٩٤/٣ ، وابن دحية . المطرب من أشعار أهل المغرب . تحقيق : الأستاذ إبراهيم الأبياري ودكتور حامد عبد المجيد ودكتور أحمد أحمد بدوي . راجعه دكتور طه حسين . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٤م ، ص ١١٨ .

ويلوح أنّ فرط إعجاب الحاكم الأندلسي بطريقة المتنبي الشعرية دفع بعض الشعراء إلى تقحّم ميدان معارضته مع افتقاره إلى أسباب الموهبة والتمكن مما أثار عليه إشفاق الحاكم . وقصة الشاعر ابن شرف في مجلس المأمون ابن ذي النون ذات دلالة في ذلك حين طلب هذا الشاعر من أميره أن يعارض أبا الطيب في أي قصيدة من قصائده ، فتثاقل ابن ذي النون عن جوابه علماً منه بحقيقة قدراته وإشفاقاً عليه من الفضيحة ، ثم لم يلبث أن أجابه إلى ماطلب بعد إلحاح الشاعر الشديد الذي سلك سبيل المكابرة ، فباء بالخيبة والإخفاق[1].

وتبدّت هذه الحماسة البالغة للمذهب القديم المحدث المتمثل بشعر أبي الطيب وأبي العلاء في موقف المظفر بن الأفطس ملك بطليوس ـ وهو أديب ملوك عصره ـ إذ ((كان ينكر الشعر على قائله في زمانه ، ويفيّل رأي من ارتسم في ديوانه . يقول : من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو شعر المعري فليسكت . لايرضى بدون ذلك))[2] .

وبهذا كله شرع المذهب القديم المحدث يترسخ في بيئة الأندلس الشعرية ، ويستقوي باطّراد ليستقطب عناية الشعراء وفنهم الشعري .

٥- الذوق الأندلسي بين المذاهب الأدبية :

ترجّح الذوق الأندلسي على امتداد تاريخه الطويل بين مذهبي العرب والمحدثين ، فاختلفت النوازع إلى أحد المذهبين باختلاف المراحل التاريخية ،

---

(١) انظر الرواية في الذخيرة ١/٤ : ٢٣، ٢٤ . وقريب من هذه الرواية ماروي عن شاعر آخر هو أبو علي بن رشيق حين عنَّ له أن يعارض أبا الطيب ، فأنفق كل طاقته وما يفوقها أيضاً في هذه المحاولة المجهدة دون التمكن من اللحاق بشأو الشاعر الكبير مما أثار عليه استهجان الناقد ابن بسام حين وصف محاولته تلك بأسلوب ساخر لايخلو من حدّة . انظر : الذخيرة ١/٤ : ٢٤، ٢٥ .

(٢) الذخيرة ٢/٢ : ٦٤١ .

فكان مذهب العرب يسود حقبةً ما ، ثم لايلبث مذهب المحدثين أن ينازعه سلطانه في حقبة تالية ، وقد يتجاور المذهبان في بعض الأطوار ، ويتجاذبان السيادة في أذواق الأندلسيين وإبداعهم الشعري تبعاً لظروف وبواعث عديدة حضارية وثقافية واجتماعية ونفسية ، وقد ينجم عن لقائهما مذهب جديد تميل إليه الأذواق في بعض الفترات ويلائم ظرفاً حضاريًّا خاصًّا . وعلى هذا فقد اصطبغ الذوق الأندلسي إزاء المذاهب الأدبية بصبغة خاصة تأثراً وتوجيهاً للنتاج الشعري إلى مسالك فنية دون أخرى .

ففي المراحل الأندلسية الأولى ، عصر الولاة وأوائل عصر الإمارة ، عرف الشعر الأندلسي طريقة العرب مذهباً وحيداً ، فحين دخل الشعر العربي الأندلس مع الفاتحين كان موسوماً بطريقة العرب على نحو طبيعي ؛ إذ هي المذهب الوحيد للشعر العربي آنذاك ، وكانت الظروف الأندلسية التي تغصّ بالصراعات الداخلية والخارجية في تلك الحقبة المبكرة تعين على تعزيز هذا المذهب الشعري متجلياً بموضوعات الشعر التقليدية الملائمة لتلك الظروف كالفخر ، والمديح ، والحماسة ، ومتّسماً بطابع البداوة في الموضوع والصور والروح العامة ، ومصطبغاً بصبغة الجزالة والقوة في اللغة والموسيقا كما برزت لدى أهم شعراء هذا العصر كجَعْوَنة بن الصمّة الكلابي (- قبيل ١٣٨هـ) الذي وصف ابن حزم شعره بأنه ((جارٍ على مذهب الأوائل)) [(١)]، وعباس ابن ناصح (-٢٣٨هـ)، وعباس بن فرناس (-٢٧٤هـ)، وسعيد بن جودي (-٢٨٤هـ).

وبمرور الزمن وفي مرحلة تالية من عصر الإمارة شرع المذهب المحدث يتسرب إلى أشعار الأندلسيين الذين عرفوه بدخول أشعار المحدثين الأندلس ، فتجاور المذهبان في شعر الأندلسيين وأذواقهم ، واقتفى الكثير من الشعراء النهج المحدث أحياناً ، لكنهم لم يعرضوا عن طريقتهم القديمة ، فنظموا عليها في أحيان أخرى ، ولزمت طائفة أخرى من الشعراء أبواب الفحولة والمحافظة ،

---

(١) المقري . نفح الطيب ١٧٧/٣ .

فلم يعدلوا بمذهبهم القديم طريقة أخرى ؛ إذ كانوا قد أَلِفوا مذهب الأوائل الذي تمكن من أذواقهم وإبداعهم ، فكان من العسير عليهم ـ وأغلبهم من ذوي التكوين اللغوي والمحافظ الجاد ـ تقبُّلُ الاتجاه الجديد المتصل بالموضوعات اللاهية والمجدّد في اللغة والموسيقا . وشرع هذا المذهب يتعزز في الشعر الأندلسي حتى ساد الذوق الأدبي والإبداع الشعري في طورٍ تال ، إذ فُتن الأندلسيون بنماذجه المشرقية وعكفوا على اقتفاء نهجها في أشعارهم في إطار التفاتهم الدائم إلى المشرق ومحاكاة أعلامه . ويعلل الدكتور إحسان عباس هذا التوجه الأندلسي البالغ نحو الشعر المحدث في هذه المرحلة بأن الشعر الأندلسي ((من الناحية الزمنية أخذ يتكّون حين كان الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس ، ويقف على مفترق الطريق بين مذهبي أبي تمام والبحتري ، ولمّا كان الأندلسيون حينئذٍ يلتفتون في كل شيء إلى المشرق فقد اتخذوا شعر المحدثين مثالاً يقلدونه ، ومناراً يهتدون به ، أي أن الشعر المحدث لاشعر العرب الأوائل هو الأنموذج الكبير الذي استوحوه في أشعارهم . وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل . ولكن نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم...))[1].

ومهما يكن فقد بسط الاتجاه المحدث سلطانه على الذوق الأندلسي وأقبل الأندلسيون على الشعر المشرقي الجديد شرحاً ودراسةً ومعارضة كشعر أبي نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، وابن الرومي وغيرهم ، ومالوا إلى التعبير الشعري المحدث بعيداً عن الملامح المحافِظة ، فرادوا المجالات التي تتصل بالحضارة كوصف المنشآت والمباني من قصور ومنى وحدائق ، وأغرق كثيرون في المجون والتهتك والغزل الشاذ ، وجنحوا بالشعر إلى الرقة والعذوبة والسهولة ، ونهجوا سبيل الإغراب والتوليد في المعاني والصور . ولاح من شعراء المذهب المحدث في هذه المرحلة يحيى الغزال (-٢٥٠هـ) الذي يُعدّ

(١) عباس . دكتور إحسان . عصر سيادة قرطبة ص ٤٧ .

من أبرز شعراء المذهب الجديد في الأندلس بطرقه موضوعات أكثر منها المحدثون كالمجون والخمر ، وبأسلوبه ذي الطابع المحدث في إيثار اللغة السهلة والبحور القصيرة والقوافي الرقيقة . فضلاً عن قسمات خاصة تفرد بها عن غيره من شعراء هذا المذهب تتمثل في ميله إلى الحكمة أو الفلسفة المؤسسة على تجربة عميقة ، وسَوْق القصص ، واعتماد الحوار ، والجنوح إلى التحليل والتعليل ، والطابع الساخر الذي يميز عموم شعره مع نظرات مريرة في النقد الاجتماعي . وممن نهج هذا المنهج المحدث في هذه المرحلة القلفاط[1] ، ومؤمن بن سعيد[2] (-٣٥٥هـ) .

ومن اللافت للنظر أنّ العديد من شعراء المذهب المجدّد عُرفوا بشعرهم المحافظ أيضاً ، فتجاور المذهبان في شعر الشاعر الواحد الذي كان يتنازعه التشبث بميراثه القديم حيناً ، والميل إلى الحداثة والتجديد حيناً آخر . وتلك ظاهرة فريدة يلقاها المرء على امتداد الشعر الأندلسي كله ؛ فقلما أخلص شاعر فنه الشعري لمذهب بعينه ، بل كان يستجيب لطبيعة الموضوع ، أو الموقف النفسي أو الفني ، فيصب شعره حيناً في قالب تقليدي ، ويصوغه طوراً صياغة محدثة ، وقد يكسوه ثوباً محافظاً مجدداً تارة ثالثة . والحق أن المذهبين الشعريين لم يتجاورا في أشعار الشعراء فحسب ، بل امتزجا في اهتمام النقاد والشعراء وعنايتهم ، فقد رأينا عباس بن ناصح شاعر المذهب المحافظ في غمرة متابعته لأخبار المشرق الشعرية يتحمس لشعر مشرقي محدث سمعه من راويه ، ويسرف في استحسانه ويعزم على الرحيل للقاء

---

(١) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٠٢، والمقتبس طبعة ملشورم .أنطونية ص١٢-١٣-٤٢ ، ١٣٣ ، ويتيمة الدهر ٢/٥٠ .

(٢) انظر : مقطعاته الساخرة في الهجاء والتندر من سوء عيشه ، وفي غزله بالغلمان ، ابن الكتاني ـ التشبيهات من أشعار أهل الأندلس تحقيق دكتور إحسان عباس ـ ط . الثالثة ١٩٨٦م ـ دار الشروق ـ بيروت ص٢٦٥، والمقتبس طبعة ملشورم أنطونية ص١٣٨.

الشاعر المحدث لمجرد سماع طرف من شعره الذي لاينسجم مع طريقته الشعرية هو .

وبرز في عصر الخلافة الأموية المذهب المحافظ الجديد إلى جانب المذهبين القديم والمحدث ، وتجاورت هذه المذاهب الثلاثة في أذواق الأندلسيين ، وفي نتاجهم الشعري ، فكان لكل منها شأن خاص لاتصاله بالظروف الأندلسية في تلك الحقبة ، ومظاهر عديدة تبدى من خلالها ، وسمات فريدة امتاز بها من نظيره المشرقي .

والحق أن المذهب القديم أحرز في هذا العصر قوةً وتوقداً مهمَّين بفضل الدفع القوي الذي أحدثه دخول القالي إلى الأندلس مصطحباً المادة الضخمة من الشعر القديم ، وما أحدثته من نشاط دراسي وشعري على طريقة العرب ، وبفضل نشاط بقية الوافدين إلى الأندلس والعلماء الراحلين إلى المشرق والعائدين إلى وطنهم في تعميق خصائص المذهب القديم والتمكين له في البيئة الشعرية الأندلسية . ومع هذا يلوح أن التيار الحديث كان اتجاهاً غالباً في المحيط الشعري الأندلسي فرض نفوذه على الأذواق الشعرية ، فغدت تقبل ماانطوى تحته ، وتردّ ماخالفه . وعلى ذلك أعرض الذوق العام عن قصيدة الرباحي أحمد بن موسى بن حدير (-٣٥٨هـ) التي ((بناها على مذاهب العرب وخرج فيها عن مذاهب المحدثين فلم يرضها العامة))[١] على الرغم من إعجاب القالي بها وثنائه الشديد عليها[٢] ، وعلى هذا النحو أُخّرت منزلة شعراء المذهب القديم قياساً بشعراء الاتجاه المحدث في التقدير النقدي . فهذا ابن شهيد يعجب ـ بذوقه المحافظ ـ من تأخير مرتبة الشاعر أبي المطرف عبد الرحمن بن أبي الفهد عن مرتبة بعض معاصريه ذوي الاتجاه الجديد في ديوان الشعراء الذي أحدثه المنصور مع شغف هذا الشاعر بالشعر القديم وولوعه بمعارضة نماذجه وتجويده فيها . يقول ابن شهيد : ((وكان من أشهر

(١) طبقات الزبيدي ص ٣٣٩ .

(٢) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٣٩ .

من أنبتته الأندلس ووطئ ترابها بعد أبي المخشي أولاً وأحمد بن دراج آخراً ، وهو غزير المادة واسع الصدر حتى أنه لم يكد يبقي شعراً جاهليًّا ولا إسلاميًّا إلا عارضه وناقضه ، وفي كل ذلك تراه مثل الجواد إذا استولى على الأمد لا يني ولا يقصّر ، وكانت مرتبته في الشعراء أيام بني أبي عامر دون مرتبة عبادة في الزِّمام فاعجب)) [1].

وجلي أن الموقف السابق من إيثار الشعر المحدث كان موقفاً عامًّا شمل الحكام والشعراء والعامّة في هذه المرحلة .

ويتجلى في تأريخ ابن شهيد لتطور الذوق الأدبي المحدث اندفاع هذا الذوق في عصره إلى الأخذ بأسباب الحداثة ومظاهرها ، فيرى أن هذا الذوق ـ في المشرق والأندلس على حد سواء ـ تطور في إيثار الصنعة والسعي إليها بتعاقب العصور ، فكما تحوّل الذوق الأدبي في النثر إلى الشغف بالصنعة والميل إلى الرقة والعذوبة كذلك كانت حال الذوق الشعري في التقلب مع الزمان بين الأذواق المختلفة والتحول من الشغف بالبديع عموماً ، وتفريع ضروبه إلى الإفراط في طلب الجناس وسيادته الذوق الشعري في عصره . يقول بعد حديثه عن الذوق النثري : ((وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان ، وطلب كل ذي عصر مايجوز فيه وتهش له قلوب أهله ، فكان من صريع الغواني ، وبشار ، وأبي نواس ، وأصحابهم في البديع ماكان من استعمال أفانينه والزيادة في تفريع فنونه ، ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس ، وخرج عن العادة ، وطاب ذلك منه وامتثله الناس ، فكل شعر لايكون اليومَ تجنيساً أو مايشبهه تمجُّه الآذان ، والتوسط في الأمر أعدل ، ولذلك فضّل أهل البصرة صريع الغواني على أبي تمام لأنه لبس ديباجة المحدثين على لأمة العرب ، فتركّب له من الحسن بينهما ماتركّب)) [2] .

---

(١) الحميدي . جذوة المقتبس ص ٢٥٨، ٢٥٩ .

(٢) الذخيرة ق١ م١ ص ٣٢٧-٢٣٨ .

وجليٌّ أنّ الذوق الشعري الأندلسي ـ فضلاً عن المشرقي ـ في عصر ابن شهيد أفرط في الجنوح نحو مشارف الحداثة ، بل الانغماس في محيطها متجلياً في التعمق في أحد مظاهرها ، وهو اعتماد الجناس والإسراف في طلبه معرضاً عن كل ماعداه ، ويلوح أن هذا الاندفاع الغامر نحو التيار المحدث واجه من قبل أنصار القديم دعوة إلى أن يكفكف من غلوائه ويكبح من جماحه على النحو الذي دفع ابنَ شهيد إلى الدعوة إلى الاعتدال في استخدام الجناس مع إيمانه بأن الذوق الأدبي يتفاوت بتفاوت الأزمنة ، ويتخذ المنحى الفني الذي يوافقه في زمان بعينه .

وإذا كان كلام ابن شهيد السابق يحمل دعوة إلى الجمع بين المذهبين الشعريين في الشعر الأندلسي فإن هذا المزج تجسد لدى بعض الشعراء الذين تمكنوا باقتدار بالغ من التقريب بين خصائص الاتجاهين في شعرهم . ويسطع شعر ابن دراج هاهنا في اعتماده شدة الأسر ، ونزوعه إلى ذروة الجزالة والفخامة من جهة ، وفي نهجه منهج المحدثين في تطلب الصورة ، وتعقب المعنى ، والسعي إلى البديع من جهة أخرى ((حتى ليمكننا أن نقول إنّ إغرابه في طلب الصورة ، ثم محافظته على هذا اللون من الصياغة القوية كان مزجاً عجيباً بين طريقة العرب وطريقة المحدثين))[1] فضلاً عن جنوحه إلى الغريب ، واستلهامه الثقافات العديدة في شعره . والحق أن هذا المزج الذي حققه ابن درّاج كان تمثيلاً جليًّا للمذهب القديم المحدث الذي ارتبط بالشعر الرسمي وكان القسطلي ـ فضلاً عن شعراء عدة ـ أبرز ممثل له في تلك المرحلة .

ومن مظاهر ميل الذوق الأندلسي إلى المذهب المحدث في هذه الحقبة احتكام النقاد إلى المعايير الجديدة في نقد الشعر وتذوقه . فحين أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر نفراً من الأدباء بانتساخ شعر أبي تمام قام هؤلاء بتقديم

(١) عباس . دكتور إحسان . عصر سيادة قرطبة ص ٢٦٦ .

مااستحسنوا من قصائده على غيرها معتمدين مقياس الغرابة وحسن المعنى في تفضيلهم للشعر[1] .

وتفرد التيار المحدث في هذا الطور بأجلى إبداع أندلسي متمثلاً في فن الموشح الذي أُرسيت قواعده في هذا العصر ومُنح شكله الناضج المكتمل[2]، وقد خرج الموشح على صرامة القصيدة التقليدية بتجديده في الأوزان ، وبتنويعه في القوافي . فضلاً عن تمثيله الطابع الأندلسي المحض في الموضوع والشخصية والبيئة .

وظفر المذهب القديم المحدث بميل الذوق الأندلسي إليه في هذه المرحلة بعد انتقال نماذجه الشعرية إلى الأندلس وعناية الأندلسيين بها شرحاً ودراسة ومعارضة ومحاكاة كما رأينا . وغدا هذا المذهب اتجاهاً غالباً لدى شعراء المديح لما يمتاز به من فخامة وجزالة ، ولما يتسم به من جهد وتنميق في طلب الصورة الجديدة ، والمعنى المبتكر المولّد ، والتماس الزينة اللفظية البديعية . وبذلك لازم شعر البلاطات والمجالس الرسمية ، وأطلّ بكثرة لدى أعلام مدّاحي هذا العصر كابن عبد ربه ، والرمادي ، وابن هانئ ، وابن دراج .

ولم يعرف الشعر الأندلسي الصراع بين المذاهب الشعرية كما حدث في المشرق من خصومة حادّة بين أنصار القدم والحداثة ، بل وُجد المذهبان ـ فضلاً عن المذهب القديم المحدث ـ متجاورَيْن في أذواق النقاد ، وفي إبداع الشعراء . وامتاز شعر الأندلسيين في الغالب بترجّح شعر الشاعر بين هذه المذاهب جميعاً ، أو بين اثنين منها وفقاً للموقف النفسي والموضوع الشعري . وهذا ماتمّ في عصر الخلافة وما تلاها . والنماذج على ذلك كثيرة . فالشاعر ابن عبد ربه مثّل في شعره المذهب القديم حيناً ، والمذهب المحدث حيناً آخر ، وكان من روّاد المذهب القديم المحدث في الأندلس ولا سيما في مدائحه .

---

(١) انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٠٧ .

(٢) انظر : في نشوء الموشح الذخيرة ١/١ : ٤٦٩ .

وهذا الشاعر الرمادي ينهج النهج المحافظ الجديد حين يمدح أحد الحكام فيستهلّ مدحته بمقدمة غزلية سالكاً مسلك الصنعة الشعرية في طلب الصورة المبتكرة ، والمعنى الطريف والإغراق فيهما مع الاستعانة بالبديع ، والتماس الجزالة والقوة في الأسلوب والموسيقى[١] . ونراه في طور آخر شاعراً محدثاً في تهالكه على الخمر وغزله بالغلمان ، وفي روحه العابثة بالمقدسات الدينية والأخلاقية كقصيدته الشهيرة التي تألم فيها لإراقة الخمر من سائر بلاد الأندلس[٢] ، وفي تمجيد الخمرة وإعلائها على أداء العبادات[٣] ، كما يتبدى التيار المحدث لديه في المبالغة ومشارفة حدود الإحالة في تعقب الصورة وطلب المعنى الطريف[٤] . ويرود ابن شخيص (- قبل ٤٠٠هـ) موارد الأصالة حين يتغزل[٥] ، ويطرق أبواب الحداثة حين يصف الزهراء وغيرها من مباني الخلافة ومنشآتها الحضارية[٦] ، وحين يصف الروض[٧] ، وحين يتغنى ـ في روح فكاهية ـ بنهمه للطعام وتهالكه على مآدبه[٨] ، ويلوح الطابع المحافظ المجدّد في مدائحه على نحو عام[٩] .

وشُحن التيار القديم بقوة دافعة في عصر الطوائف والمرابطين بفضل عوامل عديدة . لعل أبرزها عامل الفرقة والتشتت الذي أصاب البنيان الأندلسي مع

---

(١) انظر : الجذوة ص ٣٤٨ .

(٢) انظر : الجذوة ص ١٤، ١٥ .

(٣) انظر : ابن خاقان . مطمح الأنفس . ص٨١ .

(٤) انظر : الجذوة ص ١٦٥ .

(٥) انظر ديوانه ـ . تحقيق : دكتور أحمد صلاحية . دار ابن القيّم للطباعة والتوزيع والنشر . دمشق ـ ط ١، ١٩٩٢م ، ص٧٢، ٧٣ ، ٨٤ .

(٦) انظر : ديوانه ص ٧٤-٧٥ ، ٧٩-٨٠-٨١ .

(٧) انظر : ديوانه ص ٥٣ ، ٦٥ ، ٨٧-٨٨ .

(٨) انظر : ديوانه ص ٨٨ .

(٩) انظر : ديوانه ص ٣٢ حتى ٤١ ، ٤٢ ، حتى ٥٠ ، ٦٠ حتى ٦٤ ، ٦٨ حتى ٧١ ، ٧٥-٧٦-٧٧-٧٨ ، ٩٢-٩٣-٩٤ .

احتدام الصراع مع العدو الخارجي ممَّا أفضى إلى التوجه العارم نحو ميادين الأصالة انتصاراً للانتماء العربي الإسلامي ، فاشتدت العناية بالشعر القديم ، وأسهمت جهود مدرسة القالي التي استمرت في هذا العصر بتعهد الذوق نحو طريقة العرب . فضلاً عن أثر شعري المتنبي والمعري في توجيه الذوق نحو مذهب الأوائل بشعرهما ذي الطابع البدوي . وردّ الدكتور إحسان عباس هذه الموجة الطاغية التي حملت الشعر الأندلسي نحو أجواء البداوة المناقضة للحضارة الأندلسية إلى كونها رداً على الاندفاع الغامر نحو التحضُّر والتمدن . يقول : ((ولكن الشعر في هذا المجال يمثل جانباً من الثورة على الإغراق في الحضارة ، فإذا لم نعدّ ذلك ثورة صريحة عددناه تكاملاً لابد منه من أجل خلق التعادل بين منحيين متطرفين))[1] .

وأفضت العوامل السابقة ذاتها إلى تعزيز المذهب المحافظ المجدّد الذي يلوح أنه حاز السيادة في هذه العصور نظراً لانطوائه على تقاليد القصيدة القديمة من جزالة ، وروح بدوية مضافاً إليها قسمات أخرى استلهمها من آفاق التجديد والحداثة كبروز الثقافات المختلفة التي عرفها المجتمع الأندلسي ، وامتاز بها في هذه المراحل .

ويكفي لاستجلاء ملامح الشعر في هذه المرحلة أن نعرف الأثر البالغ الذي حققه ديوانا المتنبي والمعري في بيئة الأندلس الشعرية . وهما اللذان حقّقا ذاك التلاحم الشعري البديع في مزج خيوط البداوة وآفاقها بخيوط الحضارة ومجاليها ، فأنتجا نسيجاً فريداً من الشعر يمتاز بالقوة والفخامة ، والعمق الفكري والنفسي . ولقد عكف شعراء الأندلس في هذه المرحلة على شعر هذين الشاعرين شرحاً ومعارضة ومحاكاة لأبرز خصائصه النفسية وسماته الفكرية والفنية ، كما توفّروا على الشعر القديم دراسة وشرحاً واقتفاءً .

---

(١) عباس . دكتور إحسان . عصر الطوائف والمرابطين ص ١٠٩ .

وعلى ذلك برزت خصائص التيار القديم ، والقديم المحدث في أشعار شعراء هذا العصر ، فلاح طول النفَس لدى ابن زيدون (-٤٦٣هـ) في مدائحه التي اصطبغت بالجزالة ، والعناية بالغريب[١] . فضلاً عن إبراز ثقافته المتنوعة[٢] ، وإيثاره للأوزان الطويلة والقوافي الجزلة في مقام الجدّ متمسكاً بتقليدية الصور والمعاني .

ومثّل الأعمى التطيلي (-٥٢٥هـ) المذهبَ القديم أصدق تمثيل في عنايته بموضوع المديح والإسهاب فيه ، وفي جزالة شعره ، واعتماد الغريب والإسراف فيه[٣] . مع الشغف بالعناصر البدوية ، واستلهام المعين الجاهلي في الإشارات التاريخية والأدبية الكثيرة التي تفصح عن ثقافة واسعة بأيام العرب وأعلامها وتاريخها[٤] . فضلاً عن إسهامه في الأراجيز[٥] .

ولاحت معايير المذهب القديم فضلاً عن المذهب القديم المحدث في الملاحظات النقدية في هذا العصر ، ولا سيما في ذخيرة ابن بسام التي تُعدّ أهم أثر أدبي نقدي آنذاك ، فقد ذكر ابن بسام أن أكثر أهل وقته وجمهور شعراء عصره يذهبون إلى طريقة ابن هانئ وعلى قالبه يضربون[٦] . وهذا يعني أن الذوق العام في هذه العصور كان يجنح إلى سمات الشعر القديم المحدث ،

---

(١) انظر : على سبيل المثال في ديوان ابن زيدون ورسائله ـ شرح وتحقيق علي عبد العظيم . مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧م ، ص ٥١٦ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٧- ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٧- ٢٨٨- ٢٨٩ ، ٢٩٢ .

(٢) انظر : على سبيل المثال ديوانه ص ٤٥٤ حتى ص ٤٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٨٣ ، ٣٠٧ ، ٣٢٧ ، ٣٥٢ ، ٣٧٠ ، ٣٨٤ ، ٤٠٣...

(٣) انظر : أمثلة من غريبه في ديوانه ـ تحقيق : دكتور إحسان عباس . نشر وتوزيع دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٦٣م ، ص ٤٧ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٨١ حتى ص ١٨٨ .

(٤) انظر : ديوانه ص ١٢٤ .

(٥) انظر : على سبيل المثال ص ١٤٧ حتى ص ١٦٠ ، ١٨١ حتى ص ١٨٨ .

(٦) انظر : الذخيرة ٢/٢ : ٧٩٩ .

فيتنسّم أجواء الجزالة ممزوجة بغرابة اللفظ مع العناية بالشعر الرسمي ممثلاً بالمديح الذي يلتزم تقاليد القصيدة العربية ورسومها الأصيلة في البناء الفني .

ومن ذلك أن ابن بسام أنفق شطراً مهمًّا من كتابه في إيراد معارضات الأندلسيين لشعر أعلام المذهب القديم ، والمحافظ الجديد . ولا سيما المتنبي والمعري ، وأبان عن مبلغ استلهام الأندلسيين لأشعار أولئك الأعلام بردّ معاني الأندلسيين إلى أصولها المشرقية[١] .

وإذا كان طول النفَس والإطالة في القصيد من ملامح طريقة العرب الشعرية فقد التمس ابن بسام هذا العنصر في مختاراته الشعرية ، إذ أورد قصائد طويلة لشعراء كثيرين . أمثال ابن زيدون[٢] ، وابن عمار[٣] ، وابن مقانا الأشبوني[٤] ، وابن خفاجة[٥] ، وابن عبدون[٦] ، وابن وهبون[٧] ، والأعمى التطيلي[٨] .

ويتمسك ابن بسام بتقاليد طريقة العرب في تعليقاته النقدية على مايورده من شعر ، فنراه يستهجن المنحى القائم على الجمع بين تعزية المعزّى والإسراف في مديحه لابتعاده عن آداب اللياقة داعياً إلى اقتفاء نهج الأقدمين ورسومهم الفنية في الندب والتعزية . يقول معلقاً على الأشعار التي رثي بها الوزير الفقيه أبو مروان بن سراج والتي أطال فيها الشعراء في مدح ابنه :

---

(١) انظر : على سبيل المثال الذخيرة ١/١ : ٣٥٨ ، ٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ١/٢ : ١٦٧ ، ٣٨٦- ٣٨٧ ، ٢/٢ : ٦٩٩ ، ٧١٤ ، ٧١٩ ، ٨٠١ . ٣/٣ : ٨٢٤ ، ٨٤٤ ، ١/٤ : ٢٢٤ .

(٢) انظر : الذخيرة ١/١ : ٣٦٠- ٣٦١- ٣٦٢ .

(٣) انظر : الذخيرة ١/٢ : ٣٧٢ حتى ص ٣٧٧ ، ٣٩٨- ٣٩٩- ٤٠٠ .

(٤) انظر : الذخيرة ٢/٢ : ٧٨٨ حتى ص ٧٩٣ .

(٥) انظر : الذخيرة ٢/٣ : ٥٩٨- ٥٩٩- ٦٠٠- ٦٠١- ٦٠٢- ٦٠٣- ٦٠٧- ٦٠٨- ٦٠٩- ٦٤١- ٦٤٢- ٦٤٣- ٥٩٢ .

(٦) انظر : الذخيرة ٢/٢ : ٧٢١ حتى ص ٧٢٤

(٧) انظر : الذخيرة ١/٢ : ٤٩٩ حتى ص ٥٠٢ .

(٨) انظر : الذخيرة ٢/٢ : ٧٢٤ حتى ص ٧٢٦ .

((وليس من عادة أئمة الشعراء المقتدى بهم الإكثارُ من مدح المعزّى في تـأبين حميمه المتوفى . وإنما يلمُّون به إلماماً بعد التوفُّر على ندبة ميته والإشباع في ذكر مافُقد من خصاله . ثم الكرّ على تسكين جأشه ، وحضه على التعزّي اتقاءً لربه . هذه طريقة فحول الشعراء))[1] .

وانطلاقاً من التشبث بتقاليد طريقة العرب في إيثار شرف المعنى واعتداله صب ابن بسام نقمته على كل انحراف عن ذاك السبيل ، فرفض فساد المعنى وغلو الشاعر فيه قصداً لإعلاء شأن الممدوح ومنحه قداسة دينية مما يسيئ إلى العقيدة الإسلامية . ولقد تتبع ابن بسام في هذا العصر معاني المتنبي والمعري التي تمس العقيدة واستهجنها ، وأزرى بأشعار الأندلسيين الذين اقتفوا أثرهما في هذا المسلك . فهاهو ذا يغضب من مذهب الشاعر المنفتل عبد العزيز ابن خيرة القرطبي في مديح اليهودي ابن النغريلّي ويبرأ ممّا فيه إلى الله تعالى لاجتراء صاحبه على ربه .يقول معلقاً على أبيات الشاعر التي يقول فيها :

وقد فُزْتُ بالدنيا ونلتُ بـك المـنى وأطمعُ أنْ ألقى بك الفوزَ في الأخرى

أدينُ بدين السـبتِ جهـراً لـديكمُ وإنْ كنتُ في قومي أدينُ به سـرّا[2]

((فقبح الله هذا مكسبا ، وأبعد من مذهبه مذهباً تعلّق به سببا ، فما أدري من أيّ شؤون هذا المدلّ بذنبه المجترئ على ربه أعجبُ : ألتفضيل هذا اليهودي المأفون على الأنبياء والمرسلين ، أم خلعه إليه الدنيا والدين؟ حشره الله تحت لوائه ولا أدخله الجنة إلا بفضل اعتنائه)) [3] . وهاجم ابن بسام كذلك الشاعر حسان المصيصي حين اقتفى منهج المتنبي في قرن الممدوح بالنبي الكريم ﷺ وصحبه بالصحابة الكرام[4] ، وتعقب الشاعر السميسر الذي حاكى أبا العلاء المعري في فلسفته الشكّية ، وهاجمه معرّضاً بسخافة رأيه . فضلاً عن ضعف فنه ونقص شاعريته . يقول معلقاً على أبيات للشاعر يقول فيها :

---

(١) الذخيرة ٢/١ : ٨٢١ .
(٢) الذخيرة ٢/١ : ٧٦٥
(٣) الذخيرة ٢/١ : ٧٦٥
(٤) الذخيرة ١/٢ : ٤٤١

لقد نشبْنا في الحياةِ التي ... توردُنا في ظلمةِ القبرِ
ياليتنا لم نكُ من آدمٍ ... أورطَنا في شبهِ الأسْرِ
إنْ كان قد أخرجه ذنبُه ... فمالَنا نُشرَكُ في الأمرِ [1]

((والسميسر في هذا الكلام ممن أخذ الغلوّ بالتقليد ونادى الحكمةَ من مكان بعيد ، صرّح عن عمى بصيرته ، ونشر مطويّ سريرته ، في غير معنى بديع ولا لفظ مطبوع ، ولعله أراد أن يتبع أبا العلاء فيما كان ينظمه من سخيف الآراء . ويابعد مابين النجوم والحصباء ، وهَبْه ساواه في قصر باعه وضيق ذراعه ، أين هو من حُسن إبداعه ، ولطف اختراعه؟))[2] .

وأنكر ابن بسام ـ بدافع من روحه المحافظة ـ ماذهب إليه محدثو الشعراء من الإلمام بالمعاني الفلسفية والانسياق مع نزعاتها المتطرفة مجارياً في ذلك معايير طريقة العرب النقدية في كراهة ذكر مصطلحات العلوم والفلسفة معرّضاً بالمتنبي والمعري اللذين سلكا تلك السبيل مع طول باعهما وتوقد قريحتهما . يقول معقِّباً على أبيات أبي عامر الشنتريني :

((يالقومي دفنُوني ومضَوا ... وبَنَوا في الطينِ فوقي مابنَوْا
ليتَ شعري إذْ رأوني ميّتاً ... وبكَوني أيَّ جزأيَّ بَكَوا
أنعَوْا جسمي فقد صارَ إلى ... مركزِ التعفين أم نفسي نَعوا
ماأراهم ندبوا فِيّ سوى ... فرقةِ التأليفِ إنْ كانُوا درَوْا

وهذا معنى فلسفي قلما عرّج عليه عربي ، وإنما فزع إليه المحدثون من الشعراء حين ضاق عنهم منهجُ الصواب ، وعدموا رونق كلام الأعراب ، فاستراحوا إلى هذا الهذيان استراحَ الجبان إلى تنقُّص أقرانه واستجادة سيفه وسنانه ، وقد قال بعض أهل النقد إنه عيبٌ في الشعر والنثر أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الأطباء ، أو بألفاظ الفلاسفة القدماء ، وإني لأعجب

(١،٢) الذخيرة ١/٢ : ٨٩٠ .

من أبي الطيب على سعة نفَسه وذكاء قبَسه ، فإنه أطال قرع هذا الباب والتمرس بهذه الأسباب ، وكذلك المعري كثر به انتزاعه ، وطال إليه إيضاعه حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه وحسبك من شرّ سماعه ، وإلى الله مآله ، وعليه سؤاله))[1].

ولعلّ مردّ هذا الاتجاه المحافظ المتمسك بالمألوف ، المنكر للنزوع الفلسفي والفكري المتطرف الواقعُ الأندلسي الذي يشتعل حروباً ونزاعاً ، ويعصف قلقاً واضطراباً . ولا سيما في هذه المرحلة التي شهدت دخول المرابطين الأندلس وتربُّص ممالك النصارى بالجزيرة الأندلسية مع غفلة أمراء الطوائف واستغراقهم في حياة المتع واللذائذ ، وتواطؤ بعضهم مع العدو ضد إخوانهم . هذا الواقع الحرج لم يكن ليسمح بقبول المنازع الفكرية والفلسفية وشطحاتها المتطرفة التي يمكن أن تقود إلى المزيد من الانقسام والشغب في الجماعة الأندلسية المحاربة . ولذا اعتصم أنصار الاتجاه المحافظ برسوم طريقة العرب في مواجهة رياح التجديد وما يمكن أن تحمله من خطر على وحدة الصف الأندلسي .

ولم تفض هذه السيادة التي حققها المذهب القديم ، والمذهب القديم المحدث في هذا الطور من الحياة الشعرية الأندلسية إلى محو التيار المحدث ، بل استمرت ملامح التجديد في شعر العديد من الشعراء الذين طغت هذه الطريقة على أشعارهم حيناً ، وراوحوا بينها وبين قسمات المحافظة حيناً آخر . وهذا يعيدنا إلى ماذكرناه سابقاً من أن الشعر الأندلسي تراوح بين المذاهب الفنية ـ على امتداد تاريخه ـ وفقاً لدواعي الموضوع ، أو الموقف النفسي ، أو المناسبة ، وإن تفاوتت نسبة الميل إلى مذهب بعينه دون آخر . فلقد طغت موضوعات المحدثين وأساليبهم الفنية في شعر ابن حمديس الذي أسرف في وصف مجالس الأنس والشراب ووصف الطبيعة ، كما أكثر من ذكر الموت

(١) الذخيرة ٢/١ : ٤٧٩، ٤٨٠ .

والتخوف من الآخرة[١] ، وجنح إلى التقديم لمدائحه بحديث الخمر والغزل ومجلس الأنس[٢] ، وبرزت لديه بعض الموضوعات الجزئية التي امتاز بها شعراء الأندلس كالفجريات . وهي وصف لقاء الأحبة ليلاً وتفرقهم صباحاً[٣] ، ووصف الأشياء الدقيقة[٤] . فضلاً عن القصد إلى الصورة ونشدان التفرد فيها ، والسعي إلى البديع ولا سيما الجناس والمطابقة ، وسهولة اللغة وعذوبتها . ولكن المرء لايعدم في ديوانه خطوطاً تقليدية كوصف الصيد والطرد[٥] ، وبعض الوقفات الطللية[٦] . أما الشاعر ابن صارة فامتاز بمسلك محدث تجلى في استخدام المقطوعة في أغراض شعره ماخلا قصائد المديح ، فكان يميل إلى الإيجاز والاكتفاء ببيتين أو ثلاثة في معظم الأحيان ، وقد برع في هذا المنحى كما برع فيه قبله الشاعر السميسر . وردّ الدكتور مصطفى عوض الكريّم هذا الملمح إلى أساس مهم من أسس المذهب المحدث الأندلسي إذ إنّ ((المدرسة الأندلسية الجديدة في الشعر القائمة على فكرة التوليد والاختراع اقتضت بالضرورة اختصار القصيدة ؛ إذ إنّ العبرة أصبحت بالمعنى الجديد ـ مولّداً كان أو مبتكراً ـ ، والصورة الطريفة لا بالتعمق الفكري والشمول والإبانة))[٧].

---

(١) انظر : ديوانه ـ صححه وقدّم له دكتور إحسان عباس ـ دار صادر للطباعة والنشر ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ، ١٩٦٠م ، ص ٣٤٨ .

(٢) انظر : ديوانه ص ٩٨، ٩٩ .

(٣) انظر : مقطوعاته في الفجريات ص ٦٦ ، ٢٧٧ ، ٣٦٣ .

(٤) من الأشياء الدقيقة التي وصفها ثريا الجامع. انظر : ديوانه ص٧٧، والقلم ص٢٠٣.

(٥) انظر : مثلاً ص ١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩١، ١٢٧-١٢٨-١٢٩ ، وثمة قصيدة له في وصف الصقور والكلاب انظر : ص ١٧٧، ١٧٨ .

(٦) انظر : على سبيل المثال : وقفة طللية موصولة بوصف الناقة والغزل ص ٣٠٠-٣٠٢، ووقفة أخرى ص ٣٠٥ ، وثالثة ص ٣٠٧ ، ورابعة ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٧) ابن صارة الأندلسي . حياته وشعره . بلا مكان طباعة بدون تاريخ ص ٤١ .

وعلى هذا النحو جمع ابن السيد البطليوسي في شعره بين طريقتي العرب والمحدثين ، فكما تلوح لديه الموضوعات المألوفة والمطالع التقليدية تطلّ أيضاً موضوعات الاتجاه المحدث كالغزل بالمذكر[١]، وتقديم المدحة بالغزل ، وتظهر الإشارات الثقافية الكثيرة في شعره ، وهو يعنى بالصورة ، ويسرف في إيرادها ، ويلهج بالبديع ويسعى إليه سعياً . فها هو ذا يقتصُّ آثار القدماء في مقدمة مدحته تلك :

هُمُ سَلَبُوني حسْنَ صبري إذ بانوا بأقمارِ أطواقٍ مطالعُها بانُ
لئن غادروني باللوى إنَّ مهجتي مسايرةٌ أظعانَهم حيثما كانوا
سقى عهدَهم بالخيفِ عهد غمائمٍ ينازعها مزنٌ من الدمع هتّانُ [٢]

لكنه لايلبث أن يجري في مضمار المحدثين في التقديم لقصيدته بحديث الخمر متخلصاً منه إلى المديح ، فيقول في ذي الوزارتين أبي عيسى بن لُبُّون :

قمْ نصطبحْ من قهوةٍ بكرٍ حتى نُرى صرعى من السُّكْرِ
أنفٌ تناساها الورى حتى لم تجرِ في بالٍ ولا ذكرِ
فترى الدنانَ وما حوتْ منها كجوانحٍ طويَتْ على فكر
نفحتْ فقلتُ المسكُ أو ماقد أحيى أبو عيسى من الذّكر [٣]

أما ابن خفاجة فغلب على شعره موضوعا الطبيعة والغزل بنوعيه[٤] ، والعناية بالصورة والابتكار فيها ،والشغف بالبديع مع اعتماد الجزالة والموسيقى

---

(١) انظر : أبو جناح صاحب ـ ابن السيد البطليوسي حياته . منهجه في النحو واللغة . شعره . مجلة المورد بغداد ١٩٧٧م . المجلد ٦ العدد ١ ص ٩٨ .

(٢) المقري ـ أزهار الرياض في أخبار عياض . ضبطه وحققه وعلق عليه مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ، ١٩٤٢م ، ١٢١/٣ .

(٣) أزهار الرياض ١٢٠/٣ .

(٤) انظر : في الغزل بالمذكر ديوانه ص ١٩٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ .

الهادرة مما غلّب الطابع المحدث على شعره عموماً مع شغفه بأجواء البداوة ومجاليها[١] . وانطوى شعر ابن الزقاق (- ٥٢٩هـ) في الغالب على طريقة العرب ، ولا سيما في بناء قصيدة المديح[٢] ، وفي صبغة الجزالة التي لوّنت شعره ، وفي قلّة البديع لديه . فضلاً عن المعاني والصور المألوفة . لكنه خرج عن حدود التقليدية إلى مشارف التجديد حين صاغ المعنى القديم صياغة جديدة تفرد بها معتمداً الحوار والأسلوب القصصي الرشيق ، وألمّ بطريقة المحدثين في مقطوعات قليلة أفردها لحديث الخمر والغزل بناها على مجزوءات البحور مستخدماً الألفاظ الرشيقة العذبة[٣]، وفي موضوع الفجريات[٤] ، وفي التقديم لإحدى مدائحه بمشهد الطبيعة ومجلس الأنس[٥].

وأطلت ملامح الحداثة ـ بنسب مختلفة ـ لدى الشعراء الذين كاد فنُّهم الشعري يخلص للتيار القديم والقديم المحدث ، فظهر لدى ابن زيدون فنّ المطيّرات . وهو مطارحات شعرية قائمة على الألغاز والأحاجي دارت بينه وبين المعتمد بن عباد ، ثم بينه وبين أبي طالب محمد بن مكي تدور حول الطيور . وهو فن يقترب من النظم العلمي[٦] .

ولكن ازدهار فن الموشح في هذا العصر منح التيار المحدث قوة وتفرداً ، إذ اتسع هذا الفن ، وتعددت موضوعاته ، وأفصح عن أشد جوانب الحياة الأندلسية خصوصية ، وأسهم في النظم فيه كبار الشعراء مثل محمد بن عبادة المعروف

---

(١) انظر مثلاً : ديوانه ص ١٤- ١٥- ٢٩٣- ٢٩٤ .

(٢) من الأمثلة على بناء القصيدة التقليدية لديه انظر : ديوانه ـ تحقيق عفيفة محمود ديراني . نشر وتوزيع دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٤م ، ص ٦٣-٦٩، وص ٧٣-٧٩ .

(٣) انظر : ديوانه ص ٩٣، ٩٤ ، ١١٤ .

(٤) انظر : ديوانه ١٣٠- ٢١٢ .

(٥) انظر : ديوانه ١١٥، ١١٦ .

(٦) انظر : تعريفاً بهذا الفن في ديوان ابن زيدون ورسائله . مقدمة المحقق ص ٨٥-٥٩٤. وانظر : نصوص المطيرات ص ٥٩٥-٦٢٦ .

بابن القزاز ، وابن اللبانة (- ٥٠٧هـ) ، والأعمى التطيلي (-٥٢٥هـ) ، وابن باجة (- ٥٣٣ هـ) ، وابن بقي (- ٥٤٠هـ) ، وابن أرفع رأسه (-٥٩٣هـ). وكان بروز فن الزجل الأندلسي دفعاً إضافيًّا للتيار المحدث الأندلسي منحه تفرداً وامتيازاً باهرَيْن لتصويره موضوعات شعبية لم يكن الشعر التقليدي يلتفت إليها كثيراً ، ولانطوائه على جوانب الحياة الأندلسية الحية ، مع تفرده بجانب لغوي في إيثاره العامية . فضلاً عن تجديده ـ كالموشح ـ في البناء العروضي .

وتراوح الشعر الأندلسي في عصوره الأخيرة ـ عصر الموحدين وعصر غرناطة ـ بين المذاهب الثلاثة مع اقتسام الغلبة بين المذهب المحدث ، والمذهب القديم المحدث . ويلوح أن ظل المذهب القديم أخذ في الانحسار شيئاً فشيئاً في هذا العصر تاركاً السيادة لطريقة المحدثين مع المذهب القديم المحدث الذي احتفظ بطرف من تقاليد طريقة العرب ولا سيما في التهويم في أجواء البداوة ، وفي بناء القصيدة الرسمية . لكن هذا لايعني اندثار رسوم هذا المذهب القديم ، فمع المساحة المحدودة التي كان يجول فيها تعصب له فريق من أنصاره وازدروا ماقابله من طريقة المحدثين . روى الرعيني عن شعر ابن برَّجان (- ٦٢٧هـ) : ((وهو فيه على طريقة العرب ، وكان يستضعف الشعر المحدث وكتابة المتأخرين ولا يرى ذلك شيئاً))[1].

أما النهج المحدث فامتاز في هذه العصور بالإفراط في شعر المجون والانغماس في محيط الفجور ، والعبث بالمقدسات الدينية ، وبالإكثار من شعر الوصف والطبيعة ، وبرز مع الانهيار السياسي المتواصل والهزائم الفاجعة موضوعُ الاستغاثة لإنقاذ الأندلس ، فرثاء المدن والممالك الأندلسية ، وأفصح الشعر المحدث عن المعاني الصوفية ذات الطابع الوجداني والفلسفي معاً . وبرز من أعلام الشعر الصوفي في هذا العصر ابن عربي (-٦٣٨هـ) ،

(١) طبقات الزبيدي ص ٩٨ .

والششتري (-٦٦٨هـ) ، وتوقدَ فنّ المديح النبوي ، وتفنن الأندلسيون فيه ، فابتدعوا (الميلاديات) أو (المولديات) التي غدت تقليداً شعريًّا يقترن بالاحتفال السنوي بالمناسبة العظيمة .

وحقق الموشح في هذا الطور انتشاراً واسعاً ونضجاً بالغاً ، ونظم فيه كبار الشعراء كابن سهل الإشبيلي (- ٦٤٩هـ) وابن عربي والششتري ، وابن زهر (-٥٩٥هـ) ، وابن الخطيب (- ٧٧٦هـ) ، وابن زمرك (- ٧٩٦هـ) ، وغدا فنًّا شعريًّا معترفاً به من قبل المؤلفين والنقاد بعد مواقف التحرُّج السابقة من إثبات نصوصه في المصنفات الأندلسية ، فدخل مؤلفات هذا العصر ، واختص بمصنفات خاصة أيضاً .

وتصاعد الكلف بفنون البديع ، وتكلف الشعراء النظم في ضروب بديعية بعينها كالتورية ، والتجنيس ، ولزوم مالا يلزم ، بل أفرد بعضهم مجموعات شعرية لغرض بديعي خاص . كما صنع بعض الأندلسيين حين نظم مجموعة أسماها (رائق التحلية في فائق التورية)[١] ، وكذلك عني عبد الكريم القيسي (-أواخر ق ٩هـ) بفن التورية وجعلها غرضاً ينظم فيه لذاته[٢] ، وأفرد بعضهم مقطوعات شعرية لفن بديعي كالتوشيع[٣] ، والترصيع[٤]، وصنف بعضهم في فنون البديع مصنفات خاصة ، فألَّف أبو القاسم عامر بن القاضي أبي الوليد الأزدي القرطبي (- ٦٢٣هـ) . مؤلفاً في أجناس التجنيس سمّاه (ثمرة الغُراب

---

(١) ورد اسم هذه المجموعة في مقدمة ديوان ابن خاتمة الأنصاري دون تصريح بنسبته إلى صاحبه ص١ . انظر ابن خاتمة الأنصاري ، حققه وقدم له دكتور محمد رضوان الداية . وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق ، ١٩٧٢م .

(٢) انظر : مثلاً قوله مقدماً لمقطوعة شعرية : ((وقلتُ في غرض التورية)). ديوانه ص ٢٧٩ .

(٣) انظر : برنامج شيوخ الرعيني ص ١٥٥ .

(٤) انظر : المصدر السابق ص ١٥٦ .

في ضروب من التجنيس غراب)[١]، وصنّف ابن الحاج النميري مؤلفاً مرتباً على حروف المعجم هو (مثالث القوانين في التورية والاستخدام والتضمين)[٢].

أما الشاعر الأندلسي فمع ميله إلى اتجاهه الشعري المحبّب لم يكن ليحجم عن رَوْد مشارب فنية أخرى تبعاً للمناسبة أو الموقف الشعوري ، فقد جنح الرصافي البلنسي (- ٥٧٢هـ) إلى المذهب المحدث في جمهرة شعره ساعياً إلى الصورة الجديدة والمعنى المولّد المخترع ناهجاً سبيل ابن الرومي في ذلك[٣] مؤثراً سهولة اللغة وبساطتها .

أما ابن خاتمة الأنصاري (-٧٧٠هـ) فاستهوته مغاني الأوائل ، فدار حول معانيهم وصورهم ـ إلا فيما ندر[٤] ـ مؤثراً الشعر الوجداني المنطوي على وصف لوعة الوجد والحب . لكنه مال مع نسائم التجديد في تكلف البديع[٥] ، فنظم مقطوعات في تجنيس التصريع ، وأخرى في تجنيس القوافي[٦] ، وله مقطوعة في تكلف العروض تُنشد بعشر قواف ، وله نظم في الألغاز[٧] . واتجه

---

(١) انظر : برنامج شيوخ الرعيني ص ١٩٩

(٢) انظر : ابن الخطيب ، لسان الدين ، ديوانه . تحقيق : دكتور محمد مفتاح ـ ط ١. دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ الدار البيضاء ، ١٩٨٩م . مقدمة المحقق ٤٩/١ .

(٣) من ذلك معناه في الحائك ، وفي النجار ، ووصفه للأصيل ، وكان وصفه للنهر من المقطعات التي شغلت من جاء بعده من الشعراء الذين أولعوا بمحاكاتها . انظر : مقدمة الديوان . جمع وتقديم دكتور إحسان عباس . دار الثقافة ـ بيروت ـ ط ١، ١٩٦٠م ، ص١٥، ١٦ .

(٤) ذهب دكتور محمد رضوان الداية محقق ديوان ابن خاتمة إلى أن الشاعر مال إلى طريقة الشعر المحدث على وجه العموم ، وأنه يسعى وراء الصورة الطريفة ويطلبها ، ويخترع المعنى ويولد فيه . انظر : مقدمة المحقق ص ٢٣ . ولكننا وجدنا معانيه وصوره مألوفة تقليدية .

(٥) انظر : مثلاً ديوانه ص ١٠٥ ، ١٠٦- ١٠٧ .

(٦) انظر : مثلاً ديوانه ص ١٠٨ .

(٧) انظر : ديوانه ص ١٢٣، ١٢٤ .

فريق من شعراء الأندلس المتأخرين كلسان الدين بن الخطيب ، وابن زمرك ، وعبد الكريم القيسي إلى المنهج القديم المحدث في غالب شعرهم متمثلاً في عنايتهم بموضوع المديح ـ نظراً لكونهم شعراء بلاط ـ وطول نَفسهم فيه[١] ، وفي البناء التقليدي لقصائدهم[٢] ، وفي اصطباغ شعرهم بالجزالة والفخامة ، ورَوْدهم ـ في بعض الأحيان ـ ميادين البداوة وتغنّيهم بمرابعها[٣] ، مع خوضهم ـ في الوقت نفسه ـ في فنون الشعر الجديدة كالغزل بالغلمان ، والدعابة والتهكم ، ووصف المباني السلطانية ، وفي انصرافهم إلى الشعر الديني ممثلاً بالزهد والتصوف والمديح النبوي ، وموضوعات جزئية أخرى كالإخوانيات والألغاز ، وفي اتّكائهم على البديع وسعيهم إلى فنون بعينها منه كالجناس[٤] ، والتضمين[٥] ، ولزوم مالا يلزم[٦] ، والتورية[٧] التي شُغفوا بها كثيراً مفصحين عن جوانب ثقافتهم المتنوعة .

---

(١) انظر : على سبيل المثال ديوان لسان الدين بن الخطيب ٢/٤٧٧- ٤٧٨- ٤٧٩ ، ٤٨٠-٤٨١-٤٨٣ حتى ص ٥٠٥، ٥٤٢ حتى ص ٥٤٨، وانظر مثالاً من قصائد ابن زمرك نفح ٥/١٧٤ حتى ص ١٧٧ .

(٢) من الأمثلة على بناء القصيدة المدحية لدى هؤلاء الشعراء . انظر ديوان لسان الدين ٢/٤٨٠ حتى ص ٤٨٣ ، ومن شعر ابن زمرك نفح ٥/١٧٢ حتى ص ١٧٧، وديوان عبد الكريم القيسي ، تحقيق : دكتور جمعة شيخة ، ودكتور محمد الهادي الطرابلسي . المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات . بيت الحكمة ـ تونس ـ قرطاج ، ١٩٨٨م ، ص ١٤٦-١٤٨ .

(٣) انظر : مثلاً ديوان لسان الدين بن الخطيب ٢/٥٢٤-٢٥٧ .

(٤) انظر : المصدر السابق ١/٤٣٤ .

(٥) انظر : المصدر السابق ١/١٧٩ ، ٢/٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٧٥٧ .

(٦) انظر : مثلاً ديوان عبد الكريم القيسي ص ٤٧٢ .

(٧) تتعلق التورية لديهم إما بأسماء كتب ، أو بأسماء أشخاص ، أو أماكن ، ويتضح فيها الأثر الثقافي لديهم . انظر : مثلاً ديوان لسان الدين ١/١٤٠-١٤٢، ١٦١، ٢/١٤٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٧١، ٥٩٧، ٧١٢ . وانظر : أمثلة أخرى من ديوان عبد الكريم القيسي ص ٩٥-١٠٠، ١٥٠، ١٥١، ١٧٤، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٣٩، ٢٧٩، ٣٥٥، ٣٦٢، ٣٧٧، ٤١٩ .

وهكذا تفرّد الذوق الأدبي الأندلسي بقسمات خاصة تبدّت في ترجحه بين المذاهب الشعرية المشرقية تبعاً لبواعث ترتبط بالظروف الأندلسية ، وبطبيعة التفاعل الأدبي مع المشرق ، فلم يكن التأثر الشعري الأندلسي بالمذاهب الشعرية صدًى لنظيره المشرقي أو صورة له لامن حيث التعاقب التاريخي ، ولا من حيث التزام الشاعر الأندلسي طريقة شعرية بعينها ، ولا من حيث الإبداع الأندلسي في ظل التأثر . فإذا كانت المذاهب المشرقية تدرجت ـ انسجاماً مع الظروف الحضارية هناك ـ من المذهب القديم ، فالمذهب المحدث ، فالمذهب القديم المحدث فإنّ الحال تفترق في الأندلس ؛ إذ تأثر الأندلسيون بهذه المذاهب بحسب ظروفهم الثقافية والحضارية أيضاً . ولكن على نحو يفتقد هذا التدرُّج ، فقد عرف الذوق الأندلسي ـ كما رأينا ـ مذهب العرب أولاً ، ثم برز المذهب المحدث إلى جانب التيار القديم ، وساد الذوق الأندلسي سيادة شبه مطلقة نظراً لأنَّ تكوُّن الشعر الأندلسي واكب اشتداد التيار المحدث في المشرق ، فدخل الأندلس وتعلّقت الأذواق به ، وظهر المذهب المحافظ المجدّد . ولم يلبث المذهب القديم أن عاد إلى السيادة في عصر الطوائف ، واستمرت طريقة المحدثين نشطة مع المذهب القديم المحدث حتى نهاية التاريخ الشعري الأندلسي .

وتفردت المذاهب الشعرية في الأندلس بتعايش مذهبين في الذوق الشعري ؛ إذ يتجاوران دون صراع أو خصومة كما حدث في المشرق . ولم يلتزم شاعر أندلسي ـ في الغالب ـ طريقة شعرية ما ، بل تقلب شعره بين المشارب الفنية بحكم الموضوع الشعري ، والموقف الشعوري ، والتكوين الثقافي للشاعر . فكنّا نراه يترنم بمغاني الأصالة حيناً ، ثم لايلبث أن يخوض في ميادين التحديث والتجديد حيناً آخر . لكن هذا الترجح الأندلسي بين التيارات الشعرية لايبيح الحكم على الأندلسيين بالخلط بين المذاهب الفنية ((إذ يستعيرون منها جميعاً بدون تفريق ولا اختلاف في التطبيق))[1] كما ذهب إلى ذلك الدكتور شوقي

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ط ١٢. بلا تاريخ، ص٤٣١.

ضيف حين عدَّ تنقُّل الشاعر الأندلسي بين المذاهب الفنية المشرقية مصدر حيرة واضطراب في تصنيف شعره ضمن إحدى الطرق الفنية . وهذا ماأفقد الشعر الأندلسي ـ في نظره ـ وحدة الطابع والنظام . يقول : ((ولعل من المهم أن نعرف أن الشعر الأندلسي يفقد الوحدة منذ ابن عبد ربه ، إذ نجد الشاعر الواحد يتكلّف في قطعة ، ويخفِّف من تكلّفه في أخرى ، فتَحَارُ أهو من مذهب الصانعين ، أم هو من مذهب المتصنّعين ، فقطعة فيها صنعة ، وثانية فيها تصنُّع ، وثالثة فيها تصنيع على غير نظام أو نسق معين . ولذلك كان الباحث يضطرب في الحكم على الشاعر الأندلسي ، فبينما يحكم عليه بأنه من ذوق الصانعين إذا به يجد عنده نموذجاً من ذوق المصنّعين أو المتصنّعين . وكذلك الأمر إن هو حكم عليه بأحد الذوقين الآخرين)) [1] . ودفعه هذا الرأي إلى الحكم بأن شعراء الأندلس ((يعيشون في إطار الشعر العباسي العام معيشة مضطربة)) [2] ، ويحاكون شعراء المشرق دون أن يفهموا مذهبهم فهماً واضحاً أو يعرفوا مابين هذه المذاهب من مفارق واسعة)) [3] .

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤١٨ . يعبر دكتور ضيف عن المذاهب الفنية المشرقية بمصطلحات الصنعة ، والتصنيع ، والتصنُّع ، وهي لاتخرج كثيراً عن مصطلحات المذاهب الشعرية الشائعة . أما الصنعة فيقصد بها الجهد الفني ، أو التكلف في نظم الشعر القائم على التنقيح والصقل والتثقيف . ويشير التصنيع إلى التنميق والزخرف ولا سيما بدخول البديع في الشعر واكتمال نضجه عند العباسيين ، مع استمداده من الثقافة والفكر والفلسفة في العصر العباسي . ويعبر التصنع عن التكلف الشديد وألوان التعقيد التي أصابت الشعر العربي نتيجة الترف العقلي الذي ألمَّ بالمجتمع العربي متجلية في التعقيد في التصوير والخيال ، وملامسة الثقافة والفلسفة من الظاهر بعيداً عن تعمق مظاهرها مقتصرين على الإسراف في اقتباس مصطلحاتها ومسائلها ، مع الاعتداد بالغريب والشاذ في التراكيب والتكلف العروضي .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٣١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٣٨، ٤٣٩ .

ولكن شعراء الأندلس لم يكونوا يستعيرون من مذاهب المشرق بدون تفريق أو فهم واضح للفروق بينها ؛ بل كان الشاعر يبدع على طريقة شعرية ما تبعاً لتكوينه الثقافي ، أو لطبيعة الموضوع الشعري ، أو للموقف النفسي والمناسبة ، أو تجاوباً مع الواقع الأندلسي الخاص . فجنح نفر من الشعراء إلى طريقة العرب استجابة لثقافتهم اللغوية والعربية الأصيلة ، أو رداً على الإسراف الأندلسي في الحضارة ، أو تشبثاً بالتقاليد الأصيلة إزاء اشتداد الخطر الخارجي ، واتجه بعضهم إلى التيار المحدث الذي أفصح عن نوازعه المجونية ، أو الزهدية ، أو الساعية نحو الإغراب في المعنى والصورة ، أو بغية تصوير جوانب مجتمعه الحضارية ، ومال فريق إلى المذهب القديم المحدث في المواقف الرسمية . ولا سيما المديح البلاطي محافظاً على تقاليد القصيدة العربية ، ومبرزاً ذخيرته الثقافية ، وملوّناً شعره بألوان الزينة والزخرف لتناسب المقام . وعلى ذلك كان الشاعر يرود أكثر من مورد شعري استجابة للمناسبة والموقف . ومن ثَمَّ رأينا شعراء يؤثرون البساطة والانطلاق واصطناع الفكاهة حين يصفون سوء معيشتهم ، أو يجاهرون بملذاتهم ، ويعبثون بالمقدسات الدينية . ولكنهم يصبغون شعرهم بالجزالة والفخامة حين يمدحون ، ويستجيبون لفيض العاطفة وانطلاقتها حين يتغنون بوقدات آلامهم ومشاعرهم .

ويفضي هذا إلى أن الشاعر الأندلسي كان يفهم المذاهب المشرقية فهماً جليًّا ويعرف فروق مابينها معرفة قوية ، ولذا استلهم كلاً منها في حينه ، وفي المقام اللائق به . بل إنَّ تراوح شعره مابينها لدليلٌ بيّن على عمق فهمه لحدود كل منها ، وخصوصية آفاقه وتفرد طابعه . ثم لم يجمع شعراء الأندلس جميعاً بين التيارات الشعرية العباسية في شعرهم ولم « يخلطوا » بينها ؛ فلقد جنح العديد منهم إلى طريقة شعرية بعينها وآثروها على ماعداها ، فوسمت جمهرة شعرهم . من هؤلاء ـ بصرف النظر عن شعراء العصور الأولى ، أو الشعراء السابقين على ابن عبد ربه انسجاماً مع مقياس الدكتور ضيف وقد تخصص معظمهم بطريقة العرب أو بالمذهب المحدث ـ ابنُ شهيد ، وابنُ الزقاق اللذان

انطوى عموم شعرهما على التيار القديم ، أما ابن حمديس والرصافي البلنسي فطغت سمات التحديث في شعرهما طغياناً بالغاً ، على حين كان التيار القديم المحدث غالباً في أشعار ابن هانئ ، وابن دراج ، وابن زيدون ، والأعمى التطيلي ، ولسان الدين بن الخطيب ، وغيرهم .

وبعد . فلم تكن المذاهب الشعرية في الأندلس صورة للمذاهب المشرقية ، أو صدى ضعيفاً لها ، ولم يكن شعراء الأندلس يعيشون في إطار الشعر العباسي العام كما ذهب إلى ذلك الدكتور ضيف . بل امتاز الأندلسيون في ظل تأثرهم بالتيارات المشرقية في جوانب مهمة وغنية ، وأبدعوا مسالك شعرية ، بل فنوناً خالصة منحتهم تفوقاً وتفرداً عظيمين . وعلى ذلك تفرد محدثو الأندلسيين ببعض الموضوعات الأساسية كفن الاستغاثة ورثاء المدن المنهارة الذي برز استجابة للواقع الأندلسي المشتعل بالصراع والجهاد . وبعض الموضوعات الجزئية كالفجريات ، والممحّصات ، ومشاهد وداع الشاعر لأسرته ، وأضافوا إلى بعض الموضوعات المحدثة مناحي جديدة منحتهم خصوصية كفن الميلاديات الذي ينضوي تحت فن المديح النبوي الذي يفصح عن عادة اجتماعية أندلسية تتجلى في الاحتفال الرسمي السنوي بهذه المناسبة وتنافس الشعراء في النظم الخاص بها ، واتسامه بتقاليد خاصة ـ كما سنرى ـ ، فضلاً عن بعض المناحي الخاصة في مديح المحدثين ، وفتن محدثوهم بحديث الطبيعة وأسرفوا فيه ، وامتازوا بوصف المظاهر الطبيعية الدقيقة ، وأعرضوا عن المسلك المشرقي الذي استبدل المقدمة الخمرية بالمقدمة الطللية ، ولم يسرف محدثوهم في اعتماد البديع في قصائدهم إسرافَ المشارقة في ذلك . ولقد تُوِّجت هذه الخطوات التجديدية المهمة بإبداع فني الموشح والزجل اللذين بلغا الذروة في ميدان التجديد في الأوزان والقوافي والموضوعات واللغة ، فتجاوزا بذلك محاولات المشرق التجديدية جميعها ليكونا أظهر إبداع أندلسي على الإطلاق .

* * *